

الآلة البشرية

تأليف أرنولد بينيت

ترجمة PaperFlip

paperfliptools.com

الفهرس

1	أن تأخذ نفسك أمرًا مسلّمًا به
2	هواة في فنّ العيش
3	الدماغ: ذلك المتطوّع الطليق
4	الخطوة العملية الأولى
5	صناعة العادات بالتركيز
6	سيّد على رأسك
7	ما هو «العيش» في جوهره
8	الاحتكاك اليومي
9	«حريق!»
10	إرهاق الآلة بلا داعٍ
11	استراحة قصيرة
12	اهتمامٌ جديد في الحياة
13	النجاح والفشل

14 الإنسان ومحيطه

15 المال

16 العقل، العقل!

أن تأخذ نفسك أمرًا مسلّمًا به

من الرجال من يستطيع أن يحب آلة حبًا أعمق من حبه لامرأة، وهؤلاء من أسعد الناس على وجه الأرض. وليس في قولي هذا غمْرٌ خفيّ في النساء، وإنما هو وصفٌ لحقيقة يعرفها الجميع. فالرجال الذين يُتعبون أنفسهم حتى الجنون في سبيل إتقان آلة هم بلا شك أوفر حظًا من غيرهم.

وأغلبنا عرف رجالًا من هذا النوع. بالأمس كانوا يصنعون السيارات، واليوم صارت الطائرات في الجو، أو هكذا ينبغي أن تكون بحسب ما يقوله مخترعوها. راقب هؤلاء المخترعين. ليس الاختراع في العادة عملهم الأصلي، فهم يخترعون في أوقات فراغهم: قبل الفطور، وفي الطريق بين المقهى والمكتب، وبعد العشاء، وفي أيام العطل. انظر كيف يسرعون إلى بيوتهم في المساء! وانظر كيف ينقضّون على نصف يوم عطلة كما ينقضّ الكلب الجائع على العظمة!

إنهم لا يريدون الغولف ولا ورق اللعب ولا الروايات ولا المجلات المصوّرة ولا النوادي ولا الخمر ولا المراهنات ولا نصائح ربطات العنق ولا الاجتماعات السياسية ولا الحكايات ولا الأغاني الهزلية ولا ابتسامات الحسناوات الأنيقات. ولا يتساءلون أبدًا في حيرة: ماذا نفعل الآن؟ لا تطول أمسياتهم أبدًا، بل هي دائمًا أقصر مما يريدون. قد تجد أحدهم في منتصف الليل مستلقيًا على ظهره، لكن ليس في سريره! بل في سقيفة، تحت آلة، يرفع شمعة يقطر شمعها نحو ذراعٍ متوتّرة أو عجلةٍ خرجت عن مركزها.

إنهم مهتمون على الدوام، بل مأخوذون تمامًا. لديهم آلة، وهم يُتقنونها. يُصلحون جزءًا فيتعطل آخر، فيُصلحونه فيتعطل ثالث، وهكذا. وحين يتقنّون أنهم بلغوا الكمال، تخرج الآلة من السقيفة، وفي خمس دقائق تتحطّم ومعها طرفٌ أو اثنان من أطراف المخترعين، لا لشيء إلا لأنهم تيقنوا قبل الأوان. ثم يبدأ العمل كله من جديد. إنهم لا يستسلمون، فذلك الحطام بالطبع كان مجرد سهو. لقد لمحوا الكمال، وفي أرواحهم بريقه. وهكذا تمضي أعمارهم.

قد تقول ساخرًا: «لن يطيروا أبدًا!» وماذا لو لم يطيروا؟ ثم ماذا عن الأخوين رايت؟ ومع كل سخريتك، ألم تحسدهم يومًا على آلتهم وعلى شغفهم بها؟

لعلك تعرف تلك اللحظة التي اكتشفت فيها، وأنت تمسّط شعرك أمام المرأة، أول شعرة بيضاء. توقفت عن التمشيط، ثم عدت إليه مسرعًا، وتظاهرت بأنك لم تنزعج، لكنك انزعجت.

وربما تعرف لحظة أشد إزعاجًا من تلك: اللحظة التي خطر لك فيها فجأة أنك «وصلت» إلى أبعد ما ستصل إليه، وحققت من حلمك القديم أقصى ما ستحقق، وأن ما تحقق لا يشبه الحلم في شيء. فالزواج مملٌ ودائم إلى حدّ مفرط، وليس كما توقعت. وتبددت أوهامك. وصار للألعاب والهوايات قلبٌ مزعج من الملل واللاجدوى. وتبين أن التبع المثالي لا وجود له، وأن كل تحفة أدبية تشبه الأخرى، وأن كل الأيام القادمة ستشبه هذا اليوم إلى حدّ ما حتى تموت.

وفي مضى كاشفة فهمت ما كان يقصده كل أولئك الذين كتبوا رسائل طويلة إلى الصحف يتجادلون فيها: هل الحياة تستحق أن تُعاش أم لا؟ ولم

يبقى أمامك إلا أن تواجه المستقبل الرمادي الرتيب، وتتظاهر بالبهجة، ودودة الصجر تنخر قلبك. باختصار: إنها اللحظة التي خطر لك فيها أن نصيبك هو «نصيب عامة الناس».

في تلك اللحظة، ألم تتمنى، بل ألا تتمنى دائمًا، آله لا تنفذ، آله لا تبلغ نهايتها أبدًا؟ ألا تعطي رأسك لتكون مستلقيًا على ظهرك، تحدق بشمعة، متسخرًا، مُحبطًا، مصابًا بالبرد، لكنك مستغرق في السعي نحو هدف؟ ألم تأسف بحزن لأنك وُلدت بلا ميلٍ إلى الآلات، لأن في الآلة شيئًا حقيقيًا...؟

لم يخطر لك أبدًا أنك **تملك** آله! يا للعمى! يا للغفلة! لم يخطر لك أن بين يديك آله تفوق في روعتها كل الآلات في السقائف: معقدة، دقيقة الضبط، ذات إمكانات مذهلة وعجيبة، لا ينتهي الاهتمام بها. **هذه الآلة هي أنت.**

تصبح مستاءً: «هذا الرجل يعظني، ولن أقبل ذلك!» عزيزي، أنا لا أعطك، ولو كنت أعطك لطننت أنك ستقبل. وأطنني أستطيع أن أمسك بزّر معطفك بعض الوقت، مهما شددته. لست أعطك، وكل ما أريده أن ألفت انتباهك إلى حقيقة ربما فاتتك كلها أو بعضها: أنك أروع قطعة آلية وُجدت على الإطلاق.

إنك تبخس نفسك حقها. يقال إن الناس لا يهتمون إلا بأنفسهم، والحقيقة أن الناس في الغالب يهتمون بكل شيء إلا أنفسهم. لقد اعتادوا أن يأخذوا أنفسهم أمرًا مسلمًا به، وهذه العادة مسؤولة عن تسعة أعشار الملل واليأس على وجه هذا الكوكب.

يستيقظ الرجل في منتصف الليل، وغالبًا بسبب إفراطٍ لذيذ من نوع ما، ويبقى ذهنه نشيطًا جدًا مدةً قبل أن يعود إلى النوم. في تلك الساعة

الصريحة، بعد نشوة المساء وقبل أمل الفجر، يرى كل شيء على حقيقته، إلا نفسه. فلا شيء يكشف لك ما حولك بوضوح مثل الأرق.

سيرى كل عيوب زوجته، ويرى أن محاولة إصلاحها ميؤوس منها. وسيرى للحظة عيوبه هو أيضًا، لكن بحدود أقل وضوحًا. وغالبًا سيقدر أن هموم الأولاد ترجح على أفراحهم. وسيعترف بكل نقائص الحياة، وبواجهها كالرجال، بعبوسٍ ومرارة، في يأسٍ صلب. وسيتمتم:

«بالطبع أنا غاضب! ومن لا يغضب؟ بالطبع أنا خائب الأمل! أهذا ما كنت أنتظره قبل عشرين سنة؟ نعم، يجب أن نُدّخر أكثر، لكننا لا نُدّخر، فهذا هو الحال! لا بد أن أقلق! أعرف أنني سأكون أفضل لو قلّلت التدخين. أعرف أنه لا معنى أبدًا للسهر والإفراط. من السخف أن أنزعج منها حين تكون في إحدى نوباتها. لا أمارس الرياضة بما يكفي. لا أستطيع الانتظام بطريقة ما. لا فائدة أبدًا من الأمل في أن تتغير الأمور، لأنني أعرف أنها لن تتغير. يا له من عالم غريب! لا تكون سعيدًا حقًا أبدًا، أنعرف؟ والآن، لو كانت الأمور مختلفة...»

ثم يغيب عن الوعي.

لاحظ: لقد أخذ نفسه أمرًا مسلّمًا به، فألقى نظرة عابرة على عيوبه ثم صرف بصره عنها. إن **محيطه** هو الذي شغل انتباهه، ومحيطه، أي «الأمور»، هو ما يتمنى أن يكون «مختلفًا»، لولا أنه يعرف من خبرته الطويلة أن تمّني هذا التغيير عبث.

ما يريدّه هو غليونٌ لا يضع نفسه في فمه، وكأسٌ لا تقفز من تلقاء نفسها إلى شفّتيه، وماءٌ لا ينسلّ من جيبه دون أن يمسه، وساقان تحملانه كل يوم أمنيًا في الهواء الطلق دون أن يطلب، وعاداتٌ تمارس نفسها بنفسها،

وزوجةٌ تتمدد وتنكمش بحسب مزاجه، مثل مكتبةٍ قابلة للتركيب تزيد رفوفها وتنقص، مكتملة دائمًا لكنها لا تنتهي أبدًا. ولأنه رجلٌ حكيم، يدرك فورًا أنه لا يستطيع أن ينال هذه الأشياء. فيستسلم للكون، ويستقر على سخطٍ دائمٍ مكتوم. ولن يقول أحد إنه غير معقول.

أترى؟ إنه لم يلتفت إلى الآلة أبدًا.

لن نسمّيها طائرة، فلنسمّيها سيارة فحسب. ها هي على الطريق تهتز وتصرّ وتخشخش وتنفث الدخان. وها هو يقول: «هذا الطريق يجب أن يكون ناعمًا كالخمّل. وهذا التل أمامي سخيّف، والنزول من الجهة الأخرى خطير حقًا. وكله منعطفات، لا أرى مئة متر أمامي.»

تخطر له فكرة جامحة: أن يجبر البلدية على صنفرة الطريق، أو أن يستعين بالجيش لإزالة التل. لكنه يطرد الفكرة، فهو رجلٌ معقول جدًّا. إنه يقبل كل شيء. يجلس على الآلة مرتديًا ثوب المعقولة، ويقبل كل شيء.

تصيح: «يا له من أحمق! لماذا لا ينزل وينفخ ذلك الإطار على الأقل؟ أي أحد يرى أن جهاز الإشعال معطلّ، ومن المؤكد تمامًا أن علبة التروس تحتاج إلى زيت. لماذا لا...؟»

سأخبرك لماذا لا يفعل: **لأنه لا يعلم أصلًا أنه يركب آلة.** لم يفحص قط الشيء الذي يجلس عليه. وفي خلفية وعيه فكرةٌ غامضة أنه جالس على قطعة صخرٍ صلبة لا تتغير، تسير على عجالات.

هواةٌ في فنِّ العيش

إذا تذكّرنا أننا سنقضي حياتنا كلها داخل هذه الآلة البشرية، وأنها وسيلتنا الوحيدة للتواصل مع بقية العالم والتفاهم معه، فإننا في الحقيقة لا نمنحها إلا قدرًا ضئيلاً جدًّا من الاهتمام. وحين أقول «نحن» أعني أرواحنا العميقة، الجزء الغريزي فينا، ذلك السرّ الكامن في داخلنا. وحين أقول «الآلة البشرية» أعني الدماغ والجسد، والدماغ قبل كل شيء. أما تعبير الروح عن نفسها بواسطة الدماغ والجسد فهو ما نسمّيه «فنّ العيش».

ونحن بالتأكيد لا نتعلم هذا الفن في المدرسة بأي قدرٍ يُذكر. في المدرسة يعلموننا أن من الضروري أن نحرك أذرعنا وسيقاننا عددًا معيّنًا من الساعات كل يوم. وُبرونا عمليًّا أن أدمغتنا قادرة على أداء حيلٍ مفيدة معيّنة، وأننا إن لم نُجبرها على أدائها سنعاني. فنركض يوميًّا إلى البيت ونعلن لوالدينا المبتهجين أن أحد عشر في اثني عشر تساوي 132. يا له من إنجازٍ للدماغ! ويستمر الأمر هكذا حتى يبدأ آباؤنا بالنظر إلينا بإعجاب لأننا نستطيع الثثرة عن جيوب الثمام أو رسم الخطوط العريضة لسياسة لويس الرابع عشر الخارجية. حسنٌ! لكن لا كلمة واحدة حتى الآن عن مبادئ فن العيش! لا شيء سوى بعض القواعد المتفرقة من والدينا، تتبعها بلا تفكير حين تطرأ أزمة بعينها. والحق أنه من العبث أن تحدّث تلميذًا عن تعبير روحه، فالأرجح أنه سيتمتم بكلمة لا تليق.

المدرسة بالطبع مجرد تحضيرٍ للعيش، إلا إن ذهب المرء إلى الجامعة، فتصير عندئذ تحضيرًا للجامعة. ويُفترض أن يوجّه المرء اهتمامه إلى العيش

بعد أن تنتهي هذه التمهيدات، أي في نحو العشرين من عمره. ولا شك أنه يعيش حينها، لكن لا جديد في ذلك، فقد كان يعيش طوال الوقت بطريقة ما، وكان طوال الوقت يستعمل الآلة دون أن يفهمها.

لكن هل يبدأ المرء، بعد انتهاء المدرسة والجامعة، بدراسة الآلة؟ أبدًا. يصح السؤال عندئذ ليس «كيف أعيش؟» بل «كيف أحصل على وضعٍ يمكّني من العيش وأحافظ عليه؟». كيف أحصل على قطعٍ صغيرة من حيواناتٍ ونباتاتٍ ميتة أبتلعها كي لا أموت جوعًا؟ وكيف أقتني، وأجدد باستمرار، مخزونًا من قطعٍ أخرى من حيواناتٍ ونباتاتٍ ميتة ألف بها نفسي كي لا أموت بردًا؟ وكيف أنال حقّ الدخول الحصري إلى أكوخٍ معيّنة أنام فيها وأكل دون أن تمطر عليّ غيوم السماء؟ وهكذا دواليك.

وحين يحقق المرء هذا الطموح، تأتي الرغبة في أن يضاعف العملية ويقوم بها لا لنفسه وحده، بل لنفسه ولشخصٍ آخر. إنه الزواج! ومع ذلك لا يُمنح حتى الآن أي اهتمامٍ علميٍّ متواصل لعمل العيش الحقيقي: للتعامل السلس مع الناس، وللتعبير عن الذات، وللتكيف الواعي مع المحيط. باختصار: لدراسة الآلة.

في الثلاثين، الأرجح أن الرجل يفهم كيف تسحب المدخنة الهواء أفضل مما يفهم جهازه التنفسي، وهذا مثال واحد من الأشياء البسيطة الواضحة. أما أن يفهم كيف يعمل دماغه هو، فإيا لها من فكرة! وأما المهارة في تجنّب هدر الطاقة الذي يسببه الاحتكاك في عمل العيش، فهل نمناها ساعة واحدة في الشهر؟ هل نفحصها أصلًا إلا بطريقة هواةٍ متعثرّة؟

ترسم آنسة شابة لوحةً بالألوان المائية، فنقول: «جميلة جدًا!» ونضيف في سرّنا: «بالنسبة لهاوية.» لكن عيشنا نحن أكثر هوايةً من رسم تلك الآنسة،

مع أنه ينبغي لكل واحدٍ منا أن يكون محترقًا في العيش!

وحين نكون قد انشغلنا بتمهيدات العيش نحو خمسٍ وخمسين سنة، نبدأ بالتفكير في التمهّل. وحتى هذه المرحلة، لم يكن سبب عدم دراستنا لفن العيش دراسةً علمية، أي إتقان الأجزاء الدقيقة من الآلة واستعمالها، أننا افتقرنا إلى وقت الفراغ، فأغلبنا لديه أكواّم هائلة منه. السبب أننا كنا ببساطة مستغرقين في التمهيدات، بل عاملنا التمهيدات كأنها العمل نفسه.

إذن، في الخامسة والخمسين ينبغي أن نبدأ أخيرًا بعيش حياتنا بمهارة المحترف، كما يرسم الرسّام المحترف لوحاته. نعم، لكننا لا نستطيع. لقد فات الأوان. فلا الرسّامون ولا لاعبو السيرك ولا أي محترفين يمكن صنعهم في الخامسة والخمسين. وهكذا ننهي حياتنا هواةً كما بدأناها.

وحين تصرّ الآلة فتضرس أسناننا، أو ترفض أن تطيع المقود فتلقينا في الخندق، نقول: «لا حيلة لنا!» أو «لا يهم! سيكون كل شيء سواء بعد مئة سنة!» أو «يجب أن أتدبّر الأمر بأفضل ما يمكن.» ونحاول أن نقنع أنفسنا بأننا حين قبلنا الوضع القائم فقد برّرناه، ونحن طوال الوقت نشعر بعدم صدقنا.

تصيح: إنك تبالغ! نعم، أبالغ. فلكي تُبرز جانبًا من الأمور يُغفل عادة، لا بد من المبالغة. والترخّص الشعري اسمٌ من أسماء هذا النوع من المبالغة. لكنني أبالغ قليلًا جدًّا، أقل بكثير مما تظن على الأرجح.

أعرف أنك ستلفت نظري إلى أن أعدادًا هائلة من الناس يقضون بانتظام جزءًا كبيرًا من أوقات فراغهم في السعي إلى تحسين أنفسهم. مسلّم! وأنا سعيدٌ بذلك. لكنني سأكون أسعد لو كان سعيهم أوثق صلةً بعمل العيش اليومي، أي بالتعبير عن الذات دون احتكاكٍ ودون رغباتٍ عقيمة.

انظر إلى هذا الرجل الذي يدرس بانتظام كل مساء من حياته! لقد فهم حقًا طبيعة الشعر، وذوقه رائع. يلقي الشعر بإحساسٍ صادق، ويمكن القول إنه رجلٌ مثقف جدًا. والشعر مصدر متعةٍ دائمةٍ له. صحيح! لكن لماذا يشكو دائمًا من أنه لا ينال ما يستحقه في عمله؟ لماذا يقلقه المال؟ لماذا يتجهّم في وجه زوجته كثيرًا؟ لماذا يصرّ على أن يأكل أكثر مما تحتمله معدته؟

لم يُكتب في كتاب القدر أن يشكو ويفلق ويتجهّم ويتألم. ولو كان محترقًا في العيش لما فعل هذه الأشياء. ولا سبب يدعو لفعلها، إلا أنه لم يتعلم عمله قط، ولم يدرس الآلة البشرية ككلّ قط، ولم يفكّر في العيش تفكيرًا عقليًا حقيقيًا قط.

تخيّل أنك صادفت سائق سيارة ينحرف ويحتكّ في كل أنحاء الطريق، فتوقفت لتسأله ما الخطب، فأجابك: «لا يهم ما الخطب. انظر فقط إلى مصابحي الجميلة، كيف تلمع، وكيف لمّعتها!» لن تعدّه سائقًا بارعًا، بل لن تعدّه رجلًا عاقلًا تمامًا. وكذلك صاحبنا دارس الشعر. فلا شك أن قدرًا كبيرًا مما يسمى «تحسين الذات» هو في الحقيقة مجرد تدليلٍ للذات: نوعٌ من المتعة لا يحسّن إلا جزءًا معيّنًا من الآلة، وبالصدفة، وعلى حساب أجزاءٍ أهم منه بكثير.

غايتي أن أوّجه انتباه الإنسان إلى نفسه ككل، باعتباره آلةً معقّدة قادرة على كفاءةٍ استثنائيةٍ تمامًا، يسافر بها في هذا العالم بسلاسة، وبالطريقة التي يريدها، فيرضى هو ويرضى معه الناس الذين يلقاهم في طريقه، ومن يتجاوزونه ومن يتجاوزهم. وغايتي أن أبين أن جزءًا ضئيلًا لا يكاد يُذكر من جهودنا المنظّمة المتواصلة يُمنح لعمل العيش الفعلي، تمييزًا له عن تمهيدات العيش.

الدماغ: ذلك المتطوِّع الطليق

ليست المشكلة في عمل العيش اليومي أننا نجهل النتائج التي ينبغي أن نحققها، أو الوسائل العامة التي يجب أن نستعملها لتحقيقها. فمع كل انشغالنا بتمهيدات العيش، وكل إهمالنا للعيش نفسه، نصل سريعًا إلى فكرةٍ دقيقة إلى حدٍّ معقول عمّا يكون عليه العيش المُرضي، وندرك بشيءٍ من الوضوح الطرق اللازمة للنجاح.

لقد صوّرت لك الرجل الذي يستيقظ في منتصف الليل فيرى الفشل شبه الكامل المروِّع لحياته. فدعني الآن أصوِّر لك الرجل الذي يستيقظ منتعشًا في صباحٍ صيفيٍّ جميل، فينظر في ذهنه بعينيّ الأمل والخبرة، لا الخبرة واليأس. سيقضي ذلك الرجل نصف ساعةٍ ممتعةٍ يفكّر في نظام الكون كما يمسه هو. إنه واضحٌ تمامًا في أن رضاه يعتمد على أفعاله هو، وأن لا قوة تستطيع أن تمنعه من القيام بتلك الأفعال. فيخطط لكل شيء، وقبل أن ينهض من فراشه يعرف بدقة ما يجب أن يفعله وما سيفعله في أزماتٍ ومنعطفاتٍ متوقّعة. إنه يرغب بصدقٍ في أن يعيش بكفاءة، فمن ذا الذي يريد أن يُفسد وجوده كل يوم؟ ويعرف الطريق إلى تحقيق رغبته.

ومع ذلك، انتبه لما أقول! لن تمضي على هذا الرجل ساعة واحدة واقفًا على هذه الأرض الصعبة حتى تكون الآلة قد تعطلّت بوضوح لا لبس فيه. الآلة التي صُمِّمت لتؤدي عمل العيش هذا، والقادرة على أدائه أداءً متقنًا تمامًا، لكنها لم تُضبط! فما فائدة أن تراجع خريطة الحياة وترسم خط السير وتُخرج الآلة من السقيفة وتنطلق، إن كانت نصف الصواميل

مفكوكة، أو عمود القيادة ملتويًا، أو الخزان خاليًا من الوقود؟ (وبعد هذا السؤال سأترك تشبيه السيارة، فهو أحسن وأفظ من أن يناسب دقة الموضوع.)

أين تعطلت الآلة البشرية؟ تعطلت في الدماغ. ماذا؟ هل في رأسه «خلل»؟ نعم بكل تأكيد، وبكل معنى الكلمة.

إنه يعرف، ولا أحد أعرف منه، أن زوجته حين تستعمل نبرةً معيّنة فيها عشرة غرامات من الحدة، فيردّ هو بنبرةٍ فيها أحد عشر غرامًا، فإن العواقب ستكون انفجارية. ويعرف من جهة أخرى أنه لو ردّ بنبرةٍ ليس فيها إلا قطرة صغيرة من العسل، فقد تكون العواقب لائقة بكائنين عاقلين. إنه يعرف ذلك. دماغه يعرفه تمامًا. ثم ماذا! بينما دماغه يجادل بأن النساء حقًا سخيفات أكثر من اللازم (كأن هذه هي المسألة)، إذا به يرسل أوامره إلى عضلات الحلق والفم، فيخرج الردّ وفيه أحد عشر غرامًا من الحدة على الأقل، وتصبح العلاقة الزوجية في خطرٍ طوال اليوم.

لم يكن يريد أن يفعل ذلك. كانت رغبته ألا يفعله. وهو يحتقر نفسه لأنه فعله. لكن دماغه لم يكن في حالة عمل سليمة. لقد انفلت دماغه وانطلق من تلقاء نفسه، ضد العقل، وضد الرغبة، وضد قرارات الصباح. وها هو ذا!

هذا مثالٌ واحد فقط، ومن أبسط الأمثلة وأهونها. ويمكن مضاعفة الأمثلة. فقد يكون الرجل شابًا يعتمد مستقبله القريب على نجاحه في امتحان، امتحانٍ يستطيع أن ينجح فيه بسهولة تامة، ولا شيء يمكن أن يمنعه من النجاح، لو أن دماغه فقط لم يكن سخيًّا إلى حدٍّ أن يأمر ساقيه بالخروج من البيت نحو ملعب التنس بدل أن يصعد بهما إلى غرفة المذاكرة. ولو أن

دماغه، بعد أن يستقر به في غرفة المذاكرة، انصرف إلى صفحات الكتب بدل أن يسرح في صورة فتاةٍ لطيفة، لا تشبه سائر الفتيات أبدًا.

أو قد يكون الرجل شيخًا سيعيش في راحةٍ تامة، لو أن دماغه فقط لم يدرّ بلا نهاية في حلقةٍ من المظالم والمخاوف والهواجس التي لا يقدر أي قدرٍ من التأمل أن يمحوها، بل ولا أن يخففها.

الدماغ، الدماغ، هو موضع المشكلة! تقول: «حسنًا، طبعًا. كلنا نعرف هذا!» لكننا على أي حال لا نتصرف كأننا نعرفه. لقد هتف كاتبٌ عظيم: «يا رب، زدنا عقولًا!» وأظن شخصيًا أنه كان أحكم لو طلب أولاً القدرة على ضبط ما لدينا من عقول. فنحن بلا شك نملك ما يكفي من العقل، ويقدر ما نستطيع أن نتدبره. وأعظم المخترين في العيش هم غالبًا أشخاصٌ ذوو قدرات ذهنية لافته حقًا، وموهبة لافته في أن يكونوا حكماء لغيرهم.

المؤسف أن لأدمغتنا عادةً في «الشروود»، كما يسمّونه بأدب. بل إن شروود الدماغ صار يُعدّ اليوم مرضًا قائمًا بذاته.

ثُرى ماذا ستقول، أيها التاجر صاحب المكتب في وسط المدينة، لصبيّ مكتبك الذي أرسلته في مهمةٍ عاجلةٍ إلى الطرف الآخر من المدينة، ثم وجدته يلهو قرب محطة القطار وأنت تهرع لتلحق بقطار عطلة نهاية الأسبوع؟ يقول لك: «أرجوك يا سيدي، لقد انطلقت إلى حيث أرسلتني، لكن في أطرافي شيئًا غريبًا يجعلني أمشي في كل أنواع الشوارع. لا حيلة لي يا سيدي!» فتقول له: «لا حيلة لك؟ إذن الأفضل أن تذهب وتكون صبيّ مكتبٍ عند شخصٍ آخر.» ودماغك أسوأ من ذلك الصبي، وأقدر منه على الأذى بطريقةٍ أخفى.

أتصوّر دماغ الرجل العادي حسن النية كأن له طباع وعادات أحد أولئك السادة المتطوعين الطلقاء، الذين ليس لديهم عملٌ عاجل، فيتجولون ويعرضون خدماتهم مجانًا على عملٍ خيريٍّ تنقصه الأيدي. وهم في العادة يُفسدون إدارة العمل ويُربكونه خلال أسبوعين تقريبًا. يأتون متى شاؤوا ويذهبون متى شاؤوا. أحيانًا يكونون مجتهدين جدًّا ومطيعين، لكن هناك احتمالًا متساويًا بأن يتهربوا ويتبعوا هواهم. ولا يجوز أن تكلمهم أو توقفهم عند حدّهم، أليسوا قد تطوّعوا مشكورين، ويهبون أيامهم بلا مقابل؟! هؤلاء بلاء كل مشروعٍ يتنازلون للتدخّل فيه.

وفي دماغ كلّ منا قدرٌ كبير جدًّا من هذا المتطوّع الطليق. لا يحقّ لدماغك على الإطلاق أن يتصرف كمتطوّع طليق، لكنه في الواقع يفعل. ينسى، ويتجاهل الأوامر صراحة، وفي اللحظة الحاسمة، حين يكون الضغط في أعلاه، يشعل سيجارة ببساطة ويخرج للتنزّه. ونحن نقبل هذا السلوك بخنوع!

يقول الشاب الذي سيرسب في امتحانه رغبًا عنه: «لم أكن في مزاجٍ للمذاكرة». ويقول الزوج الذي زوجته امرأة كسائر النساء: «خرجت الكلمات من فمي قبل أن أنتبه». ويقول الفنان: «لم يأتني الإلهام اليوم». ويقول الرجل الذي يموت من الشرابة: «لا أستطيع مقاومة الجبن». ويقول العجوز القليق: «لا يستطيع المرء أن يتحكم في أفكاره». وهذه العبارة الأخيرة تعبّر في الحقيقة عن العذر السري للخمسة جميعًا.

وتقولون لي كلّكم: «دماغي هو أنا. كيف أغيّر نفسي؟ لقد وُلدت هكذا». أولًا: أنت لم تولد «هكذا»، بل انحدرت إلى هذه الحال. وثانيًا: دماغك ليس أنت. إنه جزءٌ منك فقط، وليس أعلى مقامٍ للسلطة فيك. هل تحب أمك أو

زوجتك أو أولادك بدماعك؟ هل ترغب بدماعك؟ باختصار: هل تعيش في النهاية وفي الجوهر بدماعك؟ لا.

دماعك أداة. والدليل على أنه أداة أنك حين تلجّ عليك الضرورة القصوى تستطيع أن تأمر دماغك بأن يفعل أشياء معيّنة، فيفعلها.

وهذا هو **المبدأ الأول** من المبدأين العظيمين اللذين تقوم عليهما كفاءة الآلة البشرية:

الدماغ خادم، وهو خارج القوة المركزية للذات. وإذا كان خارج السيطرة فليس السبب أنه لا يمكن السيطرة عليه، بل لأن تأديبه أهمل.

يمكن تدريب الدماغ كما تُدرَّب اليد والعين، ويمكن جعله مطيعًا مثل كلب الصيد، وبأساليب مشابهة. وإلى ذلك الحين، فإن التحضير الذي لا غنى عنه لتأديب الدماغ هو أن تكتسب عادة النظر إلى دماغك على أنه أداة خارجة عن ذاتك، مثل اللسان أو القدم.

الخطوة العملية الأولى

الدماغ كائنٌ غريب الطباع جدًّا. وأقول مباشرةً، كي لا يمطرني علماء وظائف الأعضاء وعلماء النفس والفلاسفة بقذائفهم، إنني أعني بـ«الدماغ» تلك المَلَكَة التي تفكّر وتعطي الأوامر للعضلات. أعني بالضبط ما يعنيه الرجل العادي حين يقول «الدماغ».

الدماغ هو الدبلوماسي الذي يربّب العلاقات بين ذاتنا الغريزية والكون، ويؤدي مهمته حين يمنح الغرائز أقصى قدرٍ من الحرية بأقل قدرٍ من الاحتكاك. إنه يجادل الغرائز. يأخذها جانبًا ويبين لها حماقة بعض التصرفات. ويمسكها من ذيل ثوبها حين توشك أن تجعل من نفسها أضحوكة. يقول لإحدى الغرائز: «لا تشرب كل هذا الشراب المثّلج دفعةً واحدة، فقد نموت منه.» ويقول لأخرى: «لا تلکم هذا الرجل الوقح في عينه، فهو أقوى منا.» إنه في الحقيقة مشهّد مهيب من الحسنّ السليم.

ومع ذلك تصدر عنه أغرب الزلّات. إنه تمامًا مثل ذلك الرجل الذي نعرفه جميعًا ونستشيريه، والذي هو نبعٌ لا ينضب من النصائح الممتازة الحكيمة في كل شيء، لكنه لا يستطيع لسببٍ ما أن يطبّق حكمته على حياته الشخصية.

ففي نشاطاته الخاصة يكون الدماغ في العادة غير منضبط ولا يُعتمد عليه. لا نعرف أبدًا ماذا سيفعل بعد قليل. نعطيه عملاً يقوم به، ولنقل ونحن نمشي في الشارع إلى المكتب. ربما عليه أن يدبّر خطةً تجعل مئة وخمسين تكفي لما يحتاج مئتين، أو أن يرسم رؤوس أقلام رسالةٍ مهمة جدًّا. ثم نلتقي امرأةً جميلة، فينطلق ذلك الدماغ الحكيم غير المنضبط

خلفها، تاركًا الخطة أو مسودة الرسالة، ويتسلّى بالأمني أو الحشرات نصف ساعة، أو ساعة، وأحيانًا يومًا كاملًا. ويعترض الجزء الجادّ من ذاتنا الغريزية بضعف، لكن بلا جدوى.

أو ربما أصابتنا خيبة أملٍ كبيرة، نهائية لا رجاء فيها. فهل يترك الدماغ، ككائنٍ عاقل، تلك الخيبة وشأنها، ويعيش في الحاضر أو المستقبل بدل أن يعيش في الماضي؟ أبدًا! مع أنه يعرف تمامًا أنه يضئّ وقته، ويلقي على نفسه وعلينا كآبةً مؤلمة جدًا ولا ضرورة لها على الإطلاق، فإنه يعجز عن ضبط شهيته المريضة إلى حدٍّ أن لا عتاب يقنعه بأن يتصرف بعقلانية.

أو ربما تقرر، بعد مشاورةٍ مع الروح، أن يتدخل الدماغ بحزم في المرة القادمة التي تتحرك فيها غريزته صارة معيّنة. فيقول الدماغ: «نعم، سأراقب ذلك حقًا.» لكن حين تحين اللحظة، هل يكون الدماغ حاضرًا؟ الأرجح أنه نسي الأمر كله، أو تذكّره بعد فوات الأوان، أو يتنهد بينما الغريزة المنتصرة تضربه على رأسه: «حسنا، في المرة القادمة!»

كل هذا، وأكثر منه مما يستطيع كل قارئ أن يضيفه من ذكرياته المثيرة، سخيّف ومضحك من جهة الدماغ. وهو دليلٌ قاطع على أن الدماغ خارج لياقته، كسولٌ كسلًا شديدًا، متقلّب المزاج كمديرٍ لفرقة مسرحية، وقد نخرت العادات المنفلتة لبه.

لذلك يجب أن يخضع الدماغ للتدريب. إنه أهم أجزاء الآلة البشرية التي تعبّر بها الروح عن نفسها وتنمو، ويجب أن يتعلم عاداتٍ حسنة. وأول ما يجب أن يتعلمه هو الطاعة. والطاعة لا تُعلّم إلا بفرض الإرادة، بقوة العزم المجردة. يجب أن يُخصّص الدماغ بقوة الإرادة. فبداية العيش الحكيم هي أن تتحكم الإرادة في الدماغ، كي يتصرف الدماغ وفق الوصايا التي يعطيها الدماغ

نفسه. ومع دماغٍ مطيعٍ منضبط يستطيع الإنسان أن يعيش دائماً في مستوى أفضل لحظاته.

لكي تعلّم طفلاً الطاعة، تطلب منه أن يفعل شيئاً، ثم تتأكد من أن ذلك الشيء قد فُعل. والأمر نفسه مع الدماغ. هنا أساس الحياة الكفوءة، والترياق لنزعة الإنسان إلى أن يجعل من نفسه أضحوة. وهو بسيطٌ بشكلٍ مدهش.

قل لدماغك: «من التاسعة إلى التاسعة والنصف هذا الصباح، يجب أن تبقى دون انقطاع مع موضوعٍ معيّن سأعطيك إياه.» لا يهم ما هو هذا الموضوع، فالمقصود أن تتحكم في الدماغ وتقوّيه بالتمارين، لكن من الأفضل أن تعطيه موضوعاً مفيداً يفكر فيه بدل موضوعٍ تافه. يمكنك أن تعطيه هذا: **«دماغي خادمي. لست لعبةً في يد دماغي.»** دعه يركّز على هاتين الجملتين ثلاثين دقيقة.

تصبح: «ماذا؟ أهذا هو الطريق إلى حياةٍ كفوءة؟ لا شيء في هذا!» مهما بدا بسيطاً، هذا هو الطريق، وهو الطريق الوحيد. أما أنه لا شيء فيه، فجربّه. أضمن لك أنك ستفشل في إبقاء دماغك مركّزاً على الفكرة المعطاة ثلاثين ثانية، فضلاً عن ثلاثين دقيقة. ستجد دماغك يتصرف بطريقةٍ كانت ستكون مضحكة لولا أنها مأساوية.

ستنتهي تجاربك الأولى بفشلٍ محبط، لأن انتزاع التركيز من الدماغ على فكرةٍ معيّنة، بالإرادة ومتى أردت، ولو لمدة قصيرة كنصف ساعة، عملٌ بالغ الصعوبة، ومُتعب أيضاً! إنه يحتاج إلى مثابرة. يحتاج إلى عنادٍ شديد من الإرادة. سيقفز دماغك هنا وهناك، وفي كل مرة يقفز يجب أن تعيده بالقوة

إلى موضعه الأصلي. يجب أن تُجبره إجبارًا مطلقًا على تجاهل كل فكرة إلا الفكرة التي اخترتها له.

لا يمكنك أن تأمل في الانتصار دفعةً واحدة. لكن يمكنك أن تأمل في الانتصار. ليس هناك طريقٌ ملكيٌ للتحكم في الدماغ، ولا حيلة سحرية، ولا عملية معقدة لا يستطيع الشخص العادي أن يفهمها. إنها ببساطة مسألة: **«سأفعل، سأفعل، وسأفعل.»**

دعني ألخص. العيش بكفاءة، والعيش في مستوى أفضل ما فيك، واستخراج آخر ذرة من قوة الآلة بأقل احتكاك: كل هذا يعتمد على أن يكون الدماغ منضبطًا وقويًا. ويمكن ضبط الدماغ بتعليمه عادة الطاعة. ويمكنه أن يتعلم عادة الطاعة بممارسة التركيز. والتركيز التأديبي، مع أنه يبدو أبسط شيء في الدنيا، هو أساس البناء كله.

يجب أن تستوعب هذه الحقيقة بخيالك، أن تراها وتحسّها. وكلما مارست التركيز بانتظام أكبر، أمسك خيالك بآثاره المباشرة وغير المباشرة بقوة أكبر. وبعد أيامٍ قليلة فقط من المحاولة الصادقة في التمرين الذي ذكرته، ستلمس أثره. ستعتاد الفكرة، الغريبة في البداية لجدّتها، بأن الدماغ خارج القوة العليا التي هي أنت، وخاضعٌ لتلك القوة. وسترى نفسك، في مستقبلٍ غير بعيد، تملك القدرة على تشغيل دماغك وإطفائه في موضوعٍ معيّن، كما تشغل الكهرباء وتطفئها في غرفةٍ معيّنة.

سيعتاد الدماغ دروب الطاعة المستقيمة. والظاهرة اللافتة أنه بمجرد ممارسة الطاعة سيصبح أقل نسيانًا وأكثر فاعلية. ولن يستسلم كثيرًا لغريزة تفاجئه. باختصار: سيكون قد تلقى منشطًا عامًا. ومع دماغٍ يتحسن كل يوم، تستطيع أن تبدأ في إتقان الآلة بطريقةٍ علمية.

صناعة العادات بالتركيز

بمجرد أن تتغلب الإرادة على الدماغ، وبمجرد أن تستطيع أن تقول له، وهي واثقة بدرجة معقولة من أنه سيطيع: «افعل هذا. فكّر في هذا الاتجاه، واستمر فيه دون أن تشرّد حتى أسمح لك بالتوقف»، عندئذ يكون قد حان الوقت للشروع في إتقان الآلة البشرية بروح واسعة شاملة، كما تشرع بلدية في تنظيف مدينة وإعادة بنائها.

وستنضح الإمكانيات الهائلة للدماغ المطيع بمجرد أن نبدأ بالتفكير فيما نعيه بـ«شخصيتنا». فشخصية الإنسان ليست، ولا يمكن أن تكون، سوى الحصلة الكلية لعادات تفكيره. يكون الإنسان محسناً لأنه يفكر عادةً بإحسان. ويكون كسولاً لأن أفكاره تقيم عادةً عند متع الكسل العاجلة.

صحيح أن كل إنسان يولد ومعه ميولٌ فطرية معيّنة، وأن هذه الميول تؤثر بقوة كبيرة في تكوّن عادات التفكير المبكرة. لكن تبقى الحقيقة أن الشخصية تُبنى بعادات تفكيرٍ تستمر طويلاً. وإذا كان بناء الشخصية الناضج يُظهر عادةً خصائص الميل الفطري الأصلي بصورة مضخّمة، فهذا يدل فقط على أن البناء البطيء قد سار على غير هدى، ولم يكن العقل هو من يشرف عليه.

قد يولد طفلاً وفيه ميلٌ إلى انحناء الكتفين. فإن لم يُفعل شيء، بل إن صار على العكس موطّأً في مكتب يكره الرياضة، ستقفوس كتفاه تقوّساً مفرطاً، بفعل العادة وحدها. أما لو أن إرادته، بهدي عقله، فرضت عليه

عادةً جسدية تصحيحية، لكانت كتفاه، إن لم تكونا مستقيمتين تمامًا، قريبتين من ذلك. هذا في العادة الجسدية! والأمر نفسه في العادة الذهنية.

وكلما دققنا أكثر في نموّ الميول الفطرية، اتضح لنا أكثر أن هذا النموّ ليس حتميًا، وليس عمليةً تجري وحدها وفق قوانين غامضة قاسية لا نفهمها. فقد يُمحي أثر ميلٍ فطري بصدمةٍ عارضة. شابٌ ورث ميلًا إلى الإدمان قد يصبح ممتنعًا صارمًا بسبب صدمة رؤيته أباه السكران يضرب أمه، بينما لو كان أبوه ودودًا في سكره فلربما انتهى الابن في قارعة الطريق. لا قانون قاسيًا هنا!

ومن المعروف أيضًا أن الطباع تتغير أحيانًا تغيرًا كاملاً في نموها بسبب احتكاكٍ عابر بالصدفة مع طباعٍ أقوى منها. «ومن ذلك اليوم عزمتم على...» إلخ. أنت تعرف هذه العبارة. كثيرًا ما لا يُحفظ العزم، لكن كثيرًا ما يُحفظ. شرارةٌ أشعلت الإرادة، والإرادة المشتعلة طغت على الدماغ، فتكوّنت عاداتٌ جديدة، وجاءت النتيجة كأنها معجزة.

فإذا كانت هذه التحولات العظيمة يمكن أن تحدث بالصدفة، أفلا يمكن أن تحدث تحولاتٌ مشابهة بتخطيطٍ عاقل؟ على أي حال، من يبدأ في إحداثها يبدأ وهو واثق بأن التحولات ليست مستحيلة، لأنها قد حدثت. ويبدأ أيضًا وهو يعرف تمامًا أثر العادة في الحياة.

خذ أي عادة من عاداتك، ذهنية كانت أو جسدية. ستتذكر وقتًا لم تكن فيه تلك العادة موجودة، أو كانت موجودة لكن بالكاد تُلاحظ. وستكتشف أن أغلب عاداتك تكوّنت دون وعي، بتكرارٍ يومي لا علاقة له بأي خطةٍ عامة، كنت تمارسه دون أن تنتبه. وستضطر إلى الاعتراف بأن «شخصيتك» كما هي اليوم بناءً قام تقريبًا بلا مهندس، كيفما اتفق.

لكن المهندس تدخل أحيانًا وصمم شيئًا. ستجد هنا وهناك بين عاداتك عادةً بدأتها عن وعيٍ وقصد وثابت عليها، بفضل تأثيرٍ موقوق على الأرجح. فما الفرق بين تلك العادة الواعية والعادات غير الواعية؟ لا فرق على الإطلاق من حيث أثرها في مجموع شخصيتك. بل قد تكون أقوى عاداتك كلها. والصفة الوحيدة التي تميّزها عن غيرها أن لها هدفًا محددًا (والأرجح أنه هدفٌ حسن)، وأنها تحقق ذلك الهدف كله أو بعضه.

ليس هناك رجلٌ يقرأ هذه السطور إلا وقد أثبت في نفسه، في هذا التفصيل أو ذاك، أن الإرادة حين تُجبر الدماغ على تكرار الفعل نفسه مرةً بعد مرة، تستطيع أن تعدّل شكل شخصيته كما يعدّل النخات شكل الطين المبلول.

فإذا كانت شخصية الرجل البالغ تنمو يومًا بعد يوم (وهي كذلك)، وإذا كانت تسعة أعشار هذا النمو ناتجة عن فعلٍ غير واعٍ وعُشره فقط عن فعلٍ واعٍ، وإذا كان هذا العُشر الواعي هو أكثر أجزاء النتيجة إرضاءً، فلماذا، باسم الحسنّ السليم، لا تكون تسعة أعشار النمو من الآن فصاعدًا ناتجة عن فعلٍ واعٍ بدل العُشر؟ ما الذي يمنع هذه النتيجة الطيبة؟ لا شيء على الإطلاق، إلا عصيان الدماغ. وعصيان الدماغ يمكن علاجه، كما بيّنت سابقًا.

حين أرى رجالًا تعساء وعاجزين في صنعة العيش، بسبب غفلةٍ محضة عن نموهم هم؛ وحين أرى رجالًا مشوّهي الشخصية يبنون الشركات والإمبراطوريات ولا يتوقفون أبدًا لبينوا أنفسهم؛ وحين أرى رجالًا كئيبيين يبذلون في تعليم كلبٍ المشي على قائمتيه الخلفيتين الطاقة نفسها التي كانت ستضيء لون حياتهم كلها، أشعر كأنني أريد أن أسلم الروح، لشدة ما يبدو المشهد سخيفًا وأحمق!

لكنني بالطبع لا أسلم الروح، وتمرّ النوبة. غير أنني لا بد أن أصبح: «ألا ترى ما يفوتك؟ ألا ترى أنه يفوتك أمتع شيء على الأرض، أمتع بكثير من الشركات والإمبراطوريات والكلاب؟ ألا يلفت نظرك كم أنت أحرقت وقصير النظر، تعمل دائماً بالة رديئة بينما يمكنك أن تملك كملاً ينساب بسلاسة؟ ألا يلفت نظرك كم تسيء معاملة نفسك؟»

اسمع يا صاحب التذمر المزمن، يا من تجعل عشاء الأسرة كريهاً بشكاواك من القدر، فياك أخصّ بالكلام. هل تعرف ما يقوله الناس عنك من وراء ظهرك؟ يقولون إنك تجعل نفسك وأسرتك في شقاء بسبب عادة التذمر الدائم التي نمت فيك.

تحتج: «أمعقول أن يكون الأمر بهذا السوء؟» نعم، إنه بهذا السوء تماماً. وتقول: «الحقيقة أنني أعرف أن التذمر سخيّف. لكنني هكذا. حاولت أن أتوقف ولم أستطع!» وكيف حاولت أن تتوقف؟ «حسناً، عذمت عدة مرات على مقاومته، لكنني لا أنجح أبداً. وهذا بيننا فقط، فأنا لا أعتزف عادةً بأنني متذمر.»

ما دمت تتذمر نحو ساعة ونصف كل يوم من أيام حياتك، فقد كان تفاؤلاً مفرطاً منك يا سيدي العزيز أن تتوقع علاجاً عادياً كهذه بنّية منفردة تتكوّن في الدماغ بين حين وآخر ثم تُنسى. لا! يجب أن تفعل أكثر من ذلك.

إن ثبتّ دماغك كل يوم بحزم، نصف ساعة، على الحقيقة (وأنت تعرف أنها حقيقة) بأن **التذمر سخيّف وعقيم**، فسيبدأ دماغك من الآن فصاعداً بتكوين عادةٍ في ذلك الاتجاه، وسيبدأ بتشكّل على فكرة أن التذمر سخيّف وعقيم. وفي لحظاتٍ عابرة، حين لا يفكر في شيءٍ بعينه، سيتذكّر فجأة أن التذمر سخيّف وعقيم. وحين تجلس إلى المائدة وتفتح فمك لتقول: «لا

أفهم ماذا يقصد شريكى الأحمق بـ...»، سيتذكّر أن التذمّر سخيّف وعقيم، وسيغيّر ترتيب حلقك وأسنانك ولسانك، فتقول: «يا له من طقسٍ جميل!»

باختصار: سيتذكّر دون إرادة منك، بفعل عادةٍ جديدة. وكل من يتأمل تجربته سيعترف بأن الفشل في استبدال العادات القديمة بعاداتٍ جديدة سببه أن الدماغ لا يتذكّر في اللحظة الحاسمة؛ إنه ينسى ببساطة. وممارسة التركيز ستعالج ذلك. فكل شيء يعتمد على التركيز المنتظم. ومثال التذمّر هذا ليس إلا مثالاً، وإن لم أختره بالصدفة تمامًا.

سيّد على رأسك

بعد أن أثبتنا بالتجربة الشخصية صحة المبدأ الأول من المبدأين العظيمين المتعلقين بالآلة البشرية، وهو أن الدماغ خادمٌ لا سيّد ويمكن التحكم فيه، نستطيع الآن أن ننتقل إلى المبدأ الثاني. والمبدأ الثاني أعمق من الأول، لكنه لا يفيد شيئاً قبل أن يُفهم الأول ويُطبَّق.

الآلة البشرية جهازٌ من دماغٍ وعضلات، غايته أن يمكّن الذات من أن تنمو بحرية في الكون المحيط بها، دون احتكاك. ووظيفتها أن تحوّل حقائق الكون إلى أفضل ما ينفع الذات. وحقائق الكون هي المادة التي من عملها أن تتعامل معها، لا حقائق كونٍ مثالي، بل حقائق هذا الكون. لذلك، حين يقع الاحتكاك، وحين تكفّ حقائق الكون عن أن تكون في صالح الذات، فالعيب في الآلة. ليست المجموعة الشمسية هي التي تعطلّت، بل الآلة البشرية.

وهذا إذن هو المبدأ العظيم الثاني: عند وقوع الاحتكاك، العيب دائماً في الآلة.

لا تستطيع أن تتحكم في شيء إلا في عقلك أنت. حتى طفلك ذو العامين قد يتحدّك بقوة شخصيته الغريزية. أما عقلك أنت فتستطيع أن تتحكم فيه. عقلك حرٌّ مقدّس لا يدخله شيءٌ ضار إلا بإذنك. ولعقلك القدرة على أن يحوّل كل ظاهرةٍ خارجيةٍ إلى ما يخدم أغراضه.

إذا كانت السعادة تنبع من البشاشة واللفظ والاستقامة (ومن ذا الذي ينكر ذلك؟)، فأی اجتماعٍ ممكن للظروف سيجعلك تعيشاً ما دامت الآلة سليمة؟

وإذا كان نموّ الذات يقوم على الاستفادة من محيطك أنت (لا من محيط شخصٍ آخر)، فكيف يمكن لمحيطك أن يمنعك من النمو؟ بل ستبدو أحمق إلى حدّ ما من دونه على أي حال.

في رأسك هذا كل ما يلزم للنموّ، وللحفاظ على الكرامة، ولتحقيق السعادة، وأنت سيّد مطلق على هذا الرأس، لو أنك فقط مارست سلطات السيادة. فلماذا تقلق بشأن ما في رأس شخصٍ آخر، حيث لا تكون إلا متطفلاً، بينما تستطيع أن تصل إلى نتيجة أفضل، وبيقين مطلق، إن حصرت نشاطك في رأسك أنت؟ «انظر إلى داخلك.» «ملكوت السماوات في داخلكم.»

تحتج: «أوه، نعم! هذا كله قديم. قاله إبيكتيتوس، وقاله ماركوس أوريليوس، وقاله المسيح.» نعم قالوه، وأنا أعترف بذلك بسهولة. لكن إن كنت قد انزعجت هذا الصباح لأن الحافلة تعطلّت واضطرتت إلى أخذ سيارة أجرة، فإن هؤلاء المعلمين العظام، بالنسبة إليك، قد عاشوا عبثاً. أنت الذي تسمّي نفسك رجلاً عاقلاً، تمشي في الحياة وسعادتك وكرامتك ونموّك معلّقة بألف شيءٍ لا سيطرة لك عليه، بينما أروع آليّة منظّمة لضمان السعادة والكرامة والنموّ تصدأ في داخلك. وكل ذلك لأن لديك فكرةً ما بأن قولاً قيل قبل ألفي عام لا يمكن أن يكون عمليّاً.

تقول لطفلك بحكمة: «لا يا صغيري، لا يمكنك أن تحصل على القمر، ولن تحقق شيئاً بالكاء عليه. ها هي علبه المكعبات الجميلة هذه، تستطيع أن تتسلّى بها وتتعلم في الوقت نفسه أموراً رائعة كثيرة وتنمّي عقلك. يجب أن تحاول أن تقنع بما لديك وتستفيد منه أفضل استفادة. لو حصلت على القمر لما كنت أسعد.»

ثم تبقى ساهراً نصف الليل متحسّراً لأن آخر بريد جاءك برسالة مفادها أن «مجلس الإدارة لا يستطيع النظر في طلبكم بشأن... إلخ. تقول إن الحالتين ليستا متشابهتين. صحيح، ليستا متشابهتين. فطفلك لم يسمع قط بإيكيتوس. ومن جهة أخرى، العدالة هي القمر. وفي سنّك لا بد أنك تعرف ذلك.

تصرّ: «لكن كان على المديرين أن يوافقوا على طلبي.» بالضبط! أوافقك. لكننا لا نعيش في كونٍ من «كان يجب». لديك في داخلك جهازٌ خاص للتعامل مع كونٍ تُهدر فيه «كان يجب» صراحةً. وأنت لا تستعمله. أنت ساهر، وتُبقى زوجتك ساهرة، وتؤدي صحتك وصحتها، وتفقد كرامتك وبشاشتك. لماذا؟ أتظن أن هذه الحركات والتمثيلات ستؤثر في مجلس الإدارة؟ أتظن أنها ستجعلك في حالٍ أفضل للتعامل مع محيطك غدًا؟ أبدًا. السبب ببساطة أن العيب في الآلة.

في بعض الحالات نستعمل آلاتنا فعلاً (بقدر ما تسمح حالة الإهمال المحزنة التي هي فيها)، لكننا في حالاتٍ أخرى نتصرف بطريقة غير عقلانية بشكلٍ مدهش. فإذا خرجنا وأصابنا مطرٌ غزير، فنحن لا نجلس ونلعن الطقس، إلا إن كنا قد بلغنا من الحمق مبلغاً بعيداً. بل نفتح مظلتنا إن كانت معنا، وإلا أسرعنا إلى البيت. قد نتدّمّر، لكنه تدمّر غير جاد؛ فنحن نقبل المطر حقيقةً من حقائق الكون، ونضبط أنفسنا.

وكذلك إن فقدنا فجأة، بكارثةٍ مباغتة، شخصاً مهماً لنا، فإننا نحزن، لكننا نضبط أنفسنا، معترفين بأنها من نوائب القدر التي لا ينجو منها حتى أصحاب الملايين. وغالباً ما يكون أثر ذلك على ذاتنا أن يحسّنها في جوانب جوهرية. لكن هناك ضرباتٍ أخرى من القدر، وحقائق أخرى من الكون، نحتج عليها كما يحتج الطفل حين يُحرم من القمر.

خذ مثلاً شخصًا لديه فكرة ناقصة عن الأمانة. هذا الشخص نتيجةً لأبيه وأمه ومحيطه، وأبوه وأمه نتيجةً لآبائهما، وهكذا رجوعًا إلى الخلية الأولى. هذا الشخص نتيجةً للنظام الكوني، وثمره حتمية للسبب والنتيجة. نحن نعرف ذلك. ويجب أن نعترف بأنه حقيقة من حقائق الكون تمامًا مثل رجة مطر أو عاصفة في البحر تبتلع سفينة.

ونحن نسلم بسهولة، من الناحية النظرية، بأنه لا بد أن يوجد في هذه المرحلة من التطور عددٌ من الناس ذوي العقول غير المنصفة. ونحن مستعدون تمامًا لأن نتأمل مثل هذا الشخص بروح فلسفية، إلى أن يحدث، في مسيرة المجموعة الشمسية، أن يصطدم بنا نحن. عندها اسمع الصراخ! اسمع الانفجارات المتواصلة لرجلٍ صالحٍ مظلوم!

قد يكون هذا الشخص موظفنا، أو أمين صندوقنا، أو ابننا، أو أبنانا، أو أخانا، أو شريكنا، أو زوجتنا، أو صاحب عملنا. «لقد أُسيئت معاملتنا! لقد ظلمنا!» فنركل ونصرخ. ونغذي في داخلنا شعورًا بالمظلومية يأكل لبّ الرضا. إننا نجلس تحت المطر، ونرفض أن نفكر في المطلات أو أن نركض إلى مأوى.

ولا يهمنا أن هذا الشخص حقيقة ظل الكون يصنعها ببطء ملايين السنين. وموقفنا يوحى بأننا نريد أن تعود الأبدية إلى الوراء وتبدأ من جديد، بحيث لا نُزعج نحن على الأقل. ومع أن لدينا آلةً لتحويل الحقائق إلى غذاءٍ لنمونا، فإننا لا نحلم حتى باستعمالها.

نقول: لكنه يؤذينا! أين؟ في عقولنا. لقد سرق منا سلامنا وراحتنا وسعادتنا ومزاجنا الطيب. وحتى لو فعل، فكان الأولى أن نحتج على رجة مطر. لكن هل فعل حقًا؟ ماذا كان دماغنا يفعل حين دخل هذا الشخص المشاغب وسرق منا الممتلكات الوحيدة التي تستحق الاقتناء؟

لا، لا! ليس الأمر أنه آذانا. فالشيء المبهج الوحيد في كونٍ من الحقائق
الصلية هو أن **لا أحد يستطيع أن يؤدي أحدًا إلا نفسه**. الأمر فقط أننا
كنا سخفاء، سخفاء تمامًا كما لو أننا جلسنا تحت المطر ومظلتنا مطوَّبة إلى
جانبنا... العيب في الآلة. وأظننا بدأنا الآن نلمح ما تعنيه هذه العبارة حقًا.

ما هو «العيش» في جوهره

إن صفات الآلة البشرية وحالتها لا تُختبر ولا تُشدّ إلى أقصاها إلا في التعامل مع الناس: اجتماعيًا أو عاطفيًا أو في العمل. أما الجزء من حياتي الذي أديره وحدي، دون علاقةٍ بالآخرين أو على الأقل دون علاقةٍ مباشرة بهم، فأستطيع في العادة أن أديره بحيث لا تبكي الآلهة على منظره.

محيطي أبسط وأقل إرباكًا حين أكون وحدي، وهذوئي وضبطي لنفسني أقل عرضةً للتقلبات العنيفة. مستحيل أن ينزعج المرء من كرسي! مستحيل أن يثير كرسيُّ أعصابك! مستحيل أن تلوم كرسيًا لأنه ليس عاقلًا ملائكيًا مثلك! أما حين يتعلق الأمر بالناس!... عندئذ يكون هذا هو «العيش»!

فنّ الحياة، فنّ استخراج كل قوة الآلة البشرية، لا يكمن أساسًا في عمليات الثقافة الكتابية، ولا في التأمل في جمال الوجود وجلاله. إنه يكمن أساسًا في حفظ السلام، السلام كله، ولا شيء غير السلام، مع من رمنك الحياة بينهم.

هل أنا «أحسن نفسي» وأتعلم العيش حين أجلس منتشياً مع شكسبير أو شيلي أو هربرت سبنسر، وحيدًا في غرفتي ليلاً؟ أم حين أراقب كل احتكاكاتي البشرية اليومية؟ لا تحاول أن تهرب من المقارنة بالتلميح إلى أنني أحتقر الدراسة، أو بالإشارة إلى أن الحقائق الأثرية فوق اليوميات. لا شيء من هذا! فأنا «مجنون» بالكتب إلى حد أن مجرد اقتنائها يُمتعني.

لكن إن كانت الحقائق صالحة للأبد، فيجب أن تكون صالحة ليومٍ واحد. وإن لم أستطع أن أصرفها عملةً يومية، إن لم أستطع أن أشتري بها سعادة يومٍ

واحد لأنني لا أحمل معي إلا حقيقةً أزلية ولا أحد لديه ما يكفي من الفكة،
فحقيقتي الأزلية ليست حقيقةً أزلية. إنها مجرد قطعة زجاج لا يمكن صرفها
(يسمونها ماسة)، أو ورقة نقدية مزورة.

أستطيع أن أقول لنفسني حين أنهض صباحًا:

«أنا سيّد دماغي. لا أحد يستطيع أن يدخله وبهيج فيه كثورٍ في منجر خرف.
إن اختار رفاقي على قشرة هذا الكوكب أن يهيجوا فلن يستطيعوا أن
يؤثروا فيّ! لن أسمح لهم. لديّ القدرة على حفظ هدوئي، وسأحفظه. لا
مخلوق على الأرض يستطيع أن يُجبرني على أن أخون مبادئ، أو أن أعمى
عن جمال الكون، أو أن أكتب، أو أن أتهجّج، أو أن أشكو من نصيبي. فهذه
الأشياء كلها تعتمد على الدماغ؛ البشاشة واللفظ والتفكير الصادق كلها من
اختصاص الدماغ، والدماغ المنضبط يستطيع تحقيقها. ودماغي منضبط،
وسأزيده انضباطًا مع مرور الأيام. فأنا إذن مستقل عن المصادفات، وأراهن
على نفسي أن أدير كل تعاملاتي كما يليق بكائنٍ عاقل.»

أستطيع أن أقول هذا. أستطيع أن أدكّ هذه الحجة في دماغي بقوة الإرادة،
وبتكرارها مرارًا سأصل بالتأكيد إلى فضائل العقل العليا. وسأنتصر بالتأكيد،
لأن الدماغ آلة عادات، حتى لو لم أتكلّف أدنى عناء في التفكير في طبيعة
إخوتي من البشر، أي حتى لو تصرفتم لمصلحتي وحدها. لكن طريق
الكمال (وأتكلم نسبيًا) سيقصر ويتمهّد كثيرًا جدًّا إن فكّرت، بلا انفعال، في
حال الآلات البشرية الأخرى. وإليك كيف:

الحقيقة أن موقفني من الناس خاطئ من أساسه وبالكامل، وأنه يفرض
على آلة تفكيري ضغطًا لا داعي له على الإطلاق، حتى لو كنت قد ربّيت
الآلة بحيث تصمد أمام الضغط بنجاح.

سرّ العيش السلس بشاشة هادئة تُبقيني دائماً مالِكاً لملكة التفكير كاملة، كي أعيش بالعقل لا بالغريرة والانفعال اللحظي. **وسرّ البشاشة الهادئة هو اللطف؛** فلا يستطيع أحد أن يكون بشوشاً هادئاً باستمرار إن لم يفكر أفكاراً لطيفة باستمرار. لكن كيف أكون لطيفاً وأنا أقضي معظم وقتي في لوم الناس من حولي، أي في لوم جزءٍ من محيطي؟ وإن وصلت، وأنا ألوم، إلى شيءٍ من اللطف، فلن يكون ذلك إلا بجهدٍ هائلٍ مُنْهَك في ضبط النفس.

إذن السرّ الأعظم هو ألا تلوم، وألا تحكم وتُصدر الأحكام.

أوه! لا ألوم بلساني! فأنا أرقى بكثير من هذه الصبانية. بل أحبس اللوم في صدري حيث يتقيح. وأنا دائماً أسامح في السر، وهذا سيئٌ لي. لأنه، كما تعلم، لا شيء هناك يستحق المسامحة. لا يجب عليّ أن أسامح الطفس السيئ؛ ولو وجدت نفسي في زلزال، لما وجب عليّ أن أسامح الزلزال.

كل لوم، ملفوظاً كان أو مكتوماً، خطأ. أنا لا ألوم نفسي. أستطيع أن أفسّر نفسي لنفسي، وأستطيع دائماً أن أفسّر نفسي. لو زوّرت توقيع صديقٍ على شيك، لفسّرت الأمر لنفسي تفسيراً مقنعاً تماماً. وبدل أن ألوم نفسي، لتعاطفت معها لأنها دُفعت إلى زاويةٍ محرّجة إلى هذا الحد.

لأفحص بصدق عمليّاتي الذهنية، وسأضطر إلى الاعتراف بأن موقفِي من الآخرين مختلف تماماً عن موقفِي من نفسي. وسأضطر إلى الاعتراف بأنني في خلوة عقلي، وإن لم أقل كلمة، ألوم الآخرين باستمرار لأنني لست سعيداً. فكلما اصطدمت بشخصيةٍ معارضةٍ وتعطلّ تقدمي السلس، ألوم المعارض في سرّي. وأتصرف كأنني صرخت في العالم: «ابتعدوا عن الطريق جميعاً، فأنا قادم!» ولا يبتعد الجميع عن الطريق. ولم أكن أتوقع

حقًا أن يبتعد الجميع. لكنني أتصرف في داخلي كأنني توقعت ذلك. فالوم. ولهذا يصبح اللطف، وتصيح البشاشة، أصعب عليّ بكثير.

ما يجب أن أفعله هو هذا! يجب أن أتأمل مرةً بعد مرة، ثم مرةً أخرى، أن الكائنات التي عليّ أن أشق طريقي بينها، أي المحيط الحيّ الذي يجب أن أصنع منه سعادتي:

- حتميةً في مسار التطور تمامًا كما أنا حتمي؛
- ولها الحق في أن تكون نفسها كما لي الحق في أن أكون نفسي؛
- وهي مساويةً لي بالضبط أمام الطبيعة؛
- ويمكن تفسيرها كما يمكن تفسيري؛
- ولها من السعة ما لي؛
- وليست مسؤولةً عن تكوينها ومحيطها أكثر مما أنا مسؤول عن تكويني ومحيطي.

ويجب أن أتأمل مرةً بعد مرة، ثم مرةً أخرى، أنها كلها تستحق مني من التعاطف بقدر ما أعطيه لنفسي. ولمَ لا؟

وبعد هذا التأمل العام، يجب أن آخذ الأشخاص الذين أحتكّ بهم كثيرًا واحدًا واحدًا، وأسعى بجهدٍ متعمّد من الخيال والعقل إلى أن أفهمهم: لماذا يتصرفون هكذا وهكذا، وما صعوباتهم، وما «تفسيرهم»، وكيف يمكن تجنّب الاحتكاك. يجب أن أتأمل هكذا صباحًا بعد صباح، حتى يتشبع دماغي بحالات هؤلاء الأشخاص.

هذا برنامجٌ للتأديب. وإن اتبعته فسأفقد تدريجيًا عادة اللوم السخيفة، وسأكون قد وضعت أسس ذلك الثبات الهادئ الذي لا يترزعزع، والذي هو

التمهيد الذي لا غنى عنه للتصرف وفق العقل، وللكفاءة التامة في آلة السعادة.

لكن شيئًا في داخلي، شيئًا خسيئًا بوضوح، يقول: «نعم. حكاية ضع نفسك مكانه من جديد! حكاية عامل الناس كما تحب أن يعاملوك من جديد!» بالضبط! شيء في داخلي يخجل من أن يكون «أخلاقيًا». (كلكم تعرفون هذا الشعور!)

حسنًا، ليست الأخلاق سوى اسم آخر للسلوك العاقل؛ شكل أرقى وأكثر عملية من الأنانية، أنانيّة تحرّر الآخرين وتحرّرني معهم. لقد جرّبت الشكل الأدنى من الأنانية، وفشل. وإن كنت أخاف أن أكون أخلاقيًا، وإن كنت أفصّل أن أجدع أنفي نكايةً بوجهي، فعليّ أن أقبل العواقب. لكن الحق سينتصر.

الاحتكاك اليومي

أنا أتحدث الآن عن الشؤون اليومية العادية، لا عن المغامرات البطولية والطموحات والتضحيات. خذ اليوم، اليوم العادي في البيت العادي أو المكتب العادي. فمع أنه يأتي سبع مرات في الأسبوع، وهو أكثر الأشياء ابتذالاً، فإنه يستحق الاهتمام تمامًا. كيف تمضي الآلة فيه؟ آه! أفضل ما يمكن قوله عن الآلة إنها تمضي فيه، بطريقةٍ ما.

الاحتكاك نادرًا ما يكون من النوع الذي يُوقف الأمور تمامًا، لكنه متكرر. إنه من نوع الاحتكاك الذي، حين يحدث في دراجة، يكفي تمامًا لإزعاج راكبيها، لكنه لا يكفي لجعله ينزل عنها ويفحص محاملها. وأحيانًا يكون الاحتكاك صاحبًا جدًّا بل مزعجًا، وفي فتراتٍ أندر يصرخ كفرامل حافلةٍ معطوبة.

أنت تعرف تلك الأيام التي تشعر فيها بأن الحياة ليست واسعة بما يكفي لتسع أهل البيت أو موظفي المكتب، حين يمكن تشبيه التعامل بين الناس بحركات شخصين استيقظا بصداعٍ شديد واضطرا إلى ارتداء ملابسهما في الوقت نفسه في غرفة نومٍ ضيقة جدًّا. «بعدك بالمنشفة!» بنبرة تهذيبٍ مزرٍ يطحن الأسنان. «لو تكّرمت وأزحت أغراضك عن هذا الكرسي!» بصوتٍ لو كان رصاصةً لفجّر الرؤوس. أجرؤ على القول إنك تعرف تلك الأيام.

تجيب: «لكن هذه الأيام قليلة. في العادة...!» حسًا، في العادة يستمر الاحتكاك، وإن كان أخف حدة. نحن نعتاده، ولا نكاد نلاحظه، كما لا يكاد من في غرفةٍ خانقة يلاحظ أنها خانقة. لكن الأثر المُتّلف للاحتكاك يستمر، وإن لم نلاحظه. ثم نلاحظ ذات صباح ما خربّه، فنكتب إلى الصحف نسأل: هل

الحياة تستحق أن تُعاش؟ هل الزواج فاشل؟ هل الرجال أكثر تهذيًا من النساء؟

والدليل على أن الاحتكاك، بدرجاتٍ مختلفة ومتغيرة، موجودٌ في معظم البيوت، أننا حين نصادف بيتًا لا احتكاك فيه نُدهش. لا نستطيع أن نفيق من هذه الظاهرة. وحين نصف هذا البيت لأصدقائنا نقول: «إنهم متفاهمون جدًّا»، كأننا نقول: «لهم أجنحة ويستطيعون الطيران! تخيّل! هل سمعت بشيءٍ كهذا قط؟»

تسعون بالمئة من كل الاحتكاك اليومي سببها النبرة، مجرد نبرة الصوت.

جَرَّب هذه التجربة. قل لطفلي رضيع أو لكلب: «يا حبيبي الصغير، يا عزيزي الحلو، يا أجمل مخلوق!» لكن اصرخ بهذه الكلمات الجميلة بنبرة من يقول: «يا مصيبيتي الصغيرة! لو سمعت صوتًا آخر لكسرت كل عظمة في جسمك!» سيبيكي الرضيع حتمًا، وسينسلّ الكلب متبعًا حتمًا.

صحيحٌ أن الكلب ليس إنسانًا، ولا الرضيع كذلك. إنهما لا يفهمان. لكن قيمة التجربة تكمن بالضبط في أنهما لا يفهمان الكلمات ولا ينطقانها؛ فهي تفصل أثر النبرة عن أثر الكلمة المنطوقة.

من يتكلم يتكلم مرتين. كلماته تنقل فكرته، ونبرته تنقل موقفه الذهني من الشخص الذي يكلمه. ومن ناحية الاحتكاك، الموقف بالتأكيد أهم من الفكرة.

قد تقول لك زوجتك: «سأشتري تلك القبعة التي حدّثتك عنها.» فتجيب بصدقٍ تام: «كما تشائين.» لكن نبرتك هي التي ستحدد ما توصله. هل

توصل: «كما تشائين، فأنا حريص بمحبة على أن تُلبّي نزواتك البريئة»؟ أم
توصل: «كما تشائين، فقط لا ترعجيني بالقبعات. أنا فوق القبعات. يُنفق
في هذا البيت مالٌ كثير جدًّا على القبعات. لكن ما حيلتي!»؟ أم توصل:
«كما تشائين يا حبيبة قلبي، لكن إن أردتِ أن تكوني لطيفة فتمهّلي،
فوضعنا ضيقٌ نوعًا ما»؟ لا حاجة لأن أطيل، فأنا واثق من أنني مفهوم.

ولأن النبرة تعبيرٌ عن الموقف، فهي بالطبع ناتجة عن الموقف. والنبرة
المسيّبة للاحتكاك ناتجة أساسًا عن موقف اللوم العام الذي أدنته سابقًا لأنه
سخيفٌ ولا مبرر له. وكلما فقدنا تدريجيًا موقف اللوم السخيف هذا بالتأديب
اليقظ المستمر، تغيّرت النبرة من تلقاء نفسها تدريجيًا.

لكن يمكن للتحسينين أن يسيرا معًا. والغريب أن النبرة اللطيفة التي تتبناها
عمدًا وتكلّف تؤثر في الموقف الذهني بقدر ما يؤثر الموقف الذهني في
النبرة تقريبًا. فإن شعرت بصدق باستياء من شخص ما، لكنك، بعد أن
فهمت حماقة الغضب، أخفيت غضبك عمدًا تحت نبرة ودودة مقنعة، فسيبدأ
غضبك يخفّ فورًا. ستنقاد إلى سلسلة أفكار عقلانية، وسترى أن الشخص
الذي استأث منه له في النهاية حقٌ في الوجود، وأنه ليس ممسحة أقدام
ولا نذلًا، وأن الغضب على أي حال لا يُكسب شيئًا ويُخسر الكثير. وسترى أن
الغضب لا يليق بك.

هل تذكر رقة النبرة التي استعملتها بعد أن التأم أول خلافٍ بينك وبين رفيقٍ
عزيز؟ هل تذكر النبرة المقنعة التي استعملتها حين أردت أن تحصل على
شيء من شخصٍ صعب كانت سعادتك تعتمد عليه؟ فلماذا لا تجمع نبرتك
هذه الصفات دائمًا؟ لماذا لا تهدّب نبرتك بعناية؟ هل يُنزل من قدرك أن
تضمن أكبر قدرٍ ممكن مما تريد بأبسط الوسائل؟ أم أن في خلفية ذهنك

تلك الفكرة القائلة بأن التهذيب والتعاطف واحترام روح خالدة أخرى يعني ضعفاً مؤسفاً من جهتك؟

تقول إن سعادتك لا تعتمد على كل شخصٍ يصادف أن تكلمه. بل تعتمد. سعادتك تعتمد دائماً على ذلك الشخص بالذات. سبب احتكاكاً وستعاني. ولا فائدة من أن تجادل بأنه ليس من حق الشخص أن ينزعج من نبرتك! لقد سببت احتكاكاً كان يمكن تجنبه، لا لشيء إلا لأن آلتك للتعامل مع محيطك كانت تعاني من الكبر أو الجهل أو الطيش.

تقول إنني أصنع من الحبة قبة. لا! أنا أصنع قبة من عشرة ملايين حبة. وهذا ما تفعله الحياة. **الأسباب الصغيرة المستمرة هي التي تُحدث الآثار الكبيرة.**

أكرر: لماذا لا تتبني عمداً نبرةً لطيفة مقنعة، لمجرد أن ترى النتائج؟ بالتأكيد لا تخجل من أن تكون حكيماً. قد تبتسم بتعالٍ وأنت تقرأ هذا. لكنك تعرف جيداً أنك عازمت أكثر من مرة على أن تستعمل نبرةً لطيفة مقنعة في كل المناسبات، وأن السبب الوحيد لذلك الشجار المريع أمس مع قريبك هو أنك فشلت منذ زمن في الوفاء بعزمك. لقد كنت على رأيي مرة، وأكثر من مرة.

ما عليك فعله هو أن تعلم دماغك العادة الجديدة بالتركيز اليومي عليها، بأن تُجبر دماغك على ألا يفكر في شيء غيرها نصف ساعة كل صباح. وبعد مدة سيبدأ الدماغ بالتذكر تلقائياً. فتفسير فشلك السابق بالطبع أن دماغك غير المنضبط نسي ببساطة في اللحظة الحاسمة. خرجت النبرة من فمك قبل أن يستيقظ دماغك.

يجب أن تراقب كأنك حارس، لا النبرة الخاطئة وحدها، بل سائر أعراض موقف اللوم أيضًا، مثل العبوس. يجب أن تراقب نفسك باستمرار وبأدق التفاصيل.

تستلقي في السرير نصف ساعة وتركّز بحماس على هذه الخطة الجديدة الجميلة للنبرة الصحيحة. ثم تنهض، ولأنك لم تُحسن عقد ربطة العنق من أول مرة، تعبس وتشتتم وتصرّ على أسنانك! هذا عَرَضٌ من أعراض الموقف الخاطئ من محيطك. أنت مستيقظ، لكن دماغك ليس مستيقظًا. وفي مثل هذا العَرَض تستطيع أن تحكم على نفسك. وليس عرضًا تافهًا أيضًا! فإن كنت تعبس في وجه ربطة عنق، وتقول لربطة عنق كلاًّ لا يليق برجليّ محترم أن يقوله لربطة عنق، فماذا ستكون قادرًا عليه مع كائنٍ مسؤول؟... نعم، الأمر صعبٌ جدًّا. لكنه ممكن.

«حريق!»

في عمل العيش اليومي هذا، وفي استعمال الآلة العادي في التعامل مع الناس ساعةً بعد ساعة، تحدث أحيانًا ظاهرةٌ تسبب قدرًا كبيرًا من المتاعب، وهي نتيجةُ آليّةٍ مُهمّلةٍ جدًّا. ظاهرةٌ لا يمكن تجاهلها، ومع ذلك فهي مخزية ومهينة وصادمة وبائسة إلى حد أنني أتردد في ذكرها. فصفنُ من القراء سيسخر مني بالتأكيد قائلاً بتعالٍ: «حقًا لا يتوقع المرء أن يجد مثل هذه الأمور مطبوعةً في أيامنا!» وصفنُ آخر سيغضب بالتأكيد. ومع ذلك، لأن من أهم أهدافي في هذا الكتاب أن أناقش الأمور التي «لا يتحدث عنها الناس»، فسأناقش هذا الأمر. لكن تردّدي كبير إلى حد أنني يجب أن أقترّب منه بطريقٍ ملتوٍ، فأصفه أولًا بتشبيه.

تخيّل أنك تنظر إلى بيت رجل، فترى فجأةً أنه يحترق. اللهب بالكاد يُرى، وتستطيع أن تطفئه لو كانت يدك معلقة. لكن يدك ليست معلقة. إنه بيته لا بيتك. وقد يعرف أو لا يعرف أن بيته يحترق. لكنك تعرف بالتجربة أنك لو لفّت نظره إلى اللهب، فسيكون أثر تحذيرك غريبًا جدًّا، بل يكاد لا يُصدّق: سيبدأ فورًا بإشعال أعواد الثقاب، وصبّ النفط، والنفخ في اللهب، مستاءً بعنفٍ من تدخلك.

لذلك لا تستطيع إلا أن تقف وتشاهد، آملًا أن يلاحظ ألسنة النار قبل أن تخرج عن السيطرة فيطفئها. لكن الأرجح أنه سيلاحظها بعد فوات الأوان. وأنت العاجز عن منع الكارثة محكومٌ عليك بأن تشاهد تلف ممتلكاتٍ ثمينة. تتصاعد ألسنة النار أعلى فأعلى، ولا تخمد حتى تأكل نفسها. فتصرف

بصرك عن المشهد، ويتظاهر صاحب البيت حتى ترحل بأن شيئاً لم يحدث. وحين يخلو بنفسه يلعنها على إهماله.

ما سبق وصفُ لما يحدث حين يمرّ الرجل بالتجربة الحارقة المعروفة باسم «فقدان أعصابه». (ها قد خرج القطُّ من الكيس!)

الرجل الذي فقد أعصابه رجلٌ «يحترق» ببساطة. وحاله من أغرب المشاهد التي تقدمها الحياة، وأشدّها إذلالاً للجميع. إنها تمرّد، وغلِيانٌ يفيض، وعاصفةٌ تكتسح كل شيء. تذبل الكرامة والحسّ السليم والعدل وتُدمّر. وتسود الفوضى. لقد كسر الشيطان قيده. والغريزة تدوس وجه العقل. وفي ذلك الرجل تراجعت الحضارة مؤقتاً ملايين السنين. والأمر بالطبع يرقى إلى مرضٍ عصبي، وأظنه شبه عام.

تحتج فوراً بأنك لا تفقد أعصابك أبداً، وأنت لم تفقدها منذ دهور! لكن ألا تعني أنك لم تحطّم الأثاث منذ دهور؟ هذه الحرائق متفاوتة الشدة. بعضها يشتعل بخفوتٍ شديد، لكنها تشتعل. رجلٌ يفقد أعصابه، وآخر «يتعكّر» فقط، لكن الحدث من النوع نفسه.

حين «تتعكّر»، حين تشعر باهتزازٍ من الاستياء يفاجئ كيائك كله، حين يتغير صوتك، حين تلاحظ تغييراً في سلوك رفيقك الذي يدرك أنه «لمس نقطة حساسة»، فقد لا تصل إلى حد تحطيم الأثاث، لكن حريقاً قد شبّ، وكرامتك قد تضررت. وأنت تعترف بذلك لنفسك بعدها. أنا واثق من أنك تعرف ما أعني. وأكاد أكون واثقاً من أنك، بصراحتك الشجاعة، ستعترف بأنك تعاني من حينٍ لآخر من هذه «الحرائق» الغامضة.

يُعتقد عمومًا أن «الطبع الحادّ»، وهو من أوبئة المجتمع البشري، لا علاج له إلا بالعملية الغامضة المسماة «ضبط النفس»، وهي عملية نادرًا ما تأتي

بنتائج نافعة. ويُنظر إليه اليوم كما كان يُنظر إلى الجدري قديمًا: بلاءٌ من القدر يجب احتماله. لكنني لا أراه مستعصيًا على العلاج، بل أنا مقتنع بأنه قابلٌ للعلاج الدائم. وأهميته البارزة كمصدر إزعاجٍ للبشرية كلها تستحق، في رأيي، أن يحظى باهتمامٍ خاص.

وعلى أي حال، أنا معارضٌ بشدة لنظرية «بلاء القدر»، لأنها غير علمية وبدائية، وتشجّع على الاستسلام بلا خجل. يستطيع الرجل أن يكون سيّدًا في بيته. وإن لم يستطع أن يكون سيّدًا بقوة الإرادة المجرّدة، فيمكنه أن يكون سيّدًا بالحيلة والدهاء. وأنا شخصيًا سأستعمل الذكاء للحفاظ على عرش العقل حين يوشك أن يُقلب في الذهن بأحد هذه التمردات المدمّرة المخزية للغريزة البهيمية.

لا فائدة من أن يجادل الرجل المعتاد على فقدان أعصابه نفسه بأن هذا التصرف حماقة، وأنه لا يخدم غاية ولا يجلب إلا الضرر. ولا فائدة من أن يجادل بأنه حين يترك أعصابه تنفلت يكون على الأرجح قاسيًا، وظالمًا بالتأكيد للأشخاص المضطربين إلى مشاهدة ذلك. ولا فائدة من أن يجادل بأن الرجل الحادّ الطبع في البيت كرجلٍ يتجول في البيت ومسدسٌ محشوٌّ يبرز من جيبه، وأن كل اعتبارات الإنصاف والعقل في ذلك البيت تخضع للخوف من المسدس، وأن السلام الذي يُحفظ في ذلك البيت كثيرًا ما يكون سلامًا مخزيًا ظالمًا. هذه الحجج لن تكون قوية بما يكفي لتغلب عادةً من أقوى العادات وأشدّها ثقلًا.

يجب أن تُواجه هذه العادة وتُهزم (ويمكن ذلك!) بصفةٍ في العقل البشري أقوى منها: **الرعب الإنساني العام من أن يبدو المرء سخيًا.**

الرجل الذي يفقد أعصابه كثيرًا ما يظن أنه يفعل شيئًا رائعًا مهيبًا. والحقيقة أبعد ما تكون عن ذلك: إنه يجعل من نفسه حمارًا فحسب. إنه يستعرض نفسه أحمق بلا كرامة، في تلك الصورة البالغة الحقارة: **طفلٌ رضيع بحجم رجل**. قد يرهب رفيقًا ضعيفًا بهيأته، أو بالعبوس القاتم لنارٍ أكثر خفوتًا، لكن في قلب أضعف رفاقه شعورًا راسخًا بالاحتقار له.

وطريقة معاملة أصدقاء الرجل الحادّ الطبع له تثبت أنهم يحتقرونه، فهم لا يعاملونه ككائنٍ عاقل. وكيف يعاملونه ككائنٍ عاقل وتمسّكه بعقله هشّ إلى هذا الحد؟ ولو أنه فقط يسمع ما يقال عنه من وراء ظهره!...

يستطيع المريض أن يعالج نفسه بأن يعلّم دماغه عادة الإقامة عند حماقته البالغة. فليركّز بانتظام، وبثبّتٍ شديد، على هذه الأفكار:

«حين أفقد أعصابي، حين أتعكّر، حين يسري فيّ ذلك الاهتزاز الغامض، فأنا أجعل من نفسي حمارًا، حمارًا، ثم حمارًا! أتفهم؟ حمارًا سخيًّا! أنا أنصرف كطفلٍ كبير. أبدو أحمق. أنا مشهّدٌ خالٍ من الكرامة. الجميع يحتقرني، وبتسم لي في السر، ويزدري الحمار الأبله الذي يستحيل التفاهم معه بالعقل.»

في العادة يُخفي المريض عن نفسه هذا الجانب من مرضه، وسيُجنبه دماغه غريزيًا قدر ما يستطيع. لكنه في ساعات الهدوء يستطيع، ببطء وانتظام، أن يُجبر دماغه، بممارسة التركيز، على أن يألف هذا الجانب بالذات، حتى تصبح غريزته مع الوقت أن يفكر في هذا الجانب أولًا لا آخرًا. وحين يصل إلى هذه النقطة يكون قد نجا. فلا رجلٌ تزوره، في أول لحظات الحريق، رؤيةً واضحةً لنفسه حمارًا مكتملاً وموضعًا بائسًا للاحتقار، إلا وتكون لديه الإرادة لإطفاء الحريق.

لكن لاحظ أنه لن ينجح حتى يستطيع أن يفعل ذلك فورًا. الحريق حريق، ويجب أن تنطلق سيارات الإطفاء من المحطة وحدها في الحال. وهذا يعني اكتساب عادة ذهنية. وفي المراحل الأولى من العلاج يجب عليه بالطبع أن يتجنب المواقف القابلة للاشتعال. وهذا أمر بسيط تمامًا، إن كان الدماغ قد أُدب حتى تخلص من نسيانه الطبيعي.

إرهاق الآلة بلا داعٍ

تحدثت عن السببين العامين الرئيسيين للاحتكاك في الاستعمال اليومي للآلة. وسأتحدث الآن عن سببٍ ثانوي، ثم أنتهي من الشؤون اليومية. وهذا السبب الثانوي، ولست متأكدًا في النهاية من أن نتائجه هيّنة بما يكفي لتبرير وصفه بـ«الثانوي»، هو **إجهاد الآلة بإجبارها على عملٍ لم تُصمَّم له أصلًا**. فمع أننا عاجزون عن إقناع آلتنا بأن تؤدي بكفاءة ما يجب عليها أن تؤديه بطريقةٍ ما، فإننا نُثقلها باستمرار بمهامٍ لا ضرورة لها على الإطلاق ولا طائل منها. يبدو أننا لا نستطيع أن نترك الأشياء وشأنها.

مثلًا، في البيت العادي تُنفق كميةٌ سخيفة حقًا من قوة الآلة في **الغفال من أجل الحقيقة**. هذه الحماسة الخالصة لإثبات الحقيقة وإقرار الجميع بها تُسمّى عادةً «حبّ المخالفة». لكنها بالطبع ليست كذلك؛ إنها شيءٌ أسمى.

تقول زوجتي إن آل جونز انتقلوا إلى شقةٍ جديدةٍ إيجارها 165 جنيهًا في السنة. لكن جونز أخبرني شخصيًا أن إيجار شقته الجديدة 156 جنيهًا في السنة. فأصحّ لزوجتي. ولأنها تعرف أنها على حق، تصحّ لي. إنها لا تحتمل أن ينتصر الباطل. المسألة ليست مسألة تسعة جنيهات، بل مسألة حقيقة. وحماستها للحقيقة تثير حماستي للحقيقة.

قبل خمس دقائق لم أكن أبالي قيد شعرة إن كان إيجار شقة آل جونز الجديدة 165 أو 156 أو 1056 جنيهًا في السنة. أما الآن فيهمّني بشدة أن يكون 156. لقد حوّلت نفسي إلى جمعيةٍ خاصة لنشر الحقيقة عن إيجار

شقة آل جونز الجديدة، وفعلت زوجتي الشيء نفسه. وفي البلاغة، وفي مهارة الجدل، وفي المراقبة الصارمة لأعصابنا، يبدّد كلُّ منا كمياتٍ هائلة من تلك الطاقة الثمينة جدًّا علينا. والنتيجة الصافية: لا شيء.

لو أن واحدًا منا فهم المبادئ الأولية لهندسة الإنسان، لقال في سرّه:

«الحقيقة لا تُدَمَّر. الحقيقة ستظهر. والحقيقة لا تستعجل أبدًا. إن لم تظهر اليوم فستظهر غدًا أو في العام القادم. إنها قادرة على أن تعتني بنفسها. في النهاية ستعرف زوجتي (أو زوجي) الحقيقة الكونية الجوهرية عن إيجار شقة آل جونز الجديدة. أنا أعرفها الآن، واللحظة التي ستعرفها هي أيضًا ستكون لحظة انتصاري. لن تحتفل بانتصاري علنًا، لكنه سيكون حقيقيًا مع ذلك. وستترسّخ سمعتي في الدقة وضبط النفس الهادئ. وإن كنت، بسوء حظٍ نادر، مخطئًا، فسيكون أفضل لي بكثير في يوم انكشافي أنني لم أكن متأكدًا أكثر من اللازم الآن. ثم إن أحدًا لم يعيّنني الحارس الوحيد للحقيقة العظمى المتعلقة بإيجار شقة آل جونز الجديدة. لم آتِ إلى العالم لأكون خزنة أمانات، وأمورٌ أكثر إلحاحًا تدعوني إلى بذل الجهد.»

لو تأمل أحدنا هكذا، لتجنّبنا كثيرًا من الاحتكاك الذي لا داعي له، ولوقّرنا الطاقة، ولما تعرّضت كرامتنا للخطر، ولما تضررت قضية الحقيقة المقدسة أدنى ضرر، ولبقي إيجار شقة آل جونز الجديدة على أي حال كما هو بالضبط.

وإضافةً إلى إجهاد الآلة بقلقنا المفرط على انتشار الحقيقة، فإننا نعطي اهتمامًا مفرطًا جدًّا لحالة آلات الآخرين. ولا أستطيع أن أستنكر هذه العادة المدهشة بما يكفي من القوة والسخرية. ستجدها متفشّية في كل بيت

تقريبًا وكل مكتب تقريبًا. أغلبنا يحاول أن يعيد ترتيب الآليات في رؤوسٍ غير رأسه. وهذا خطرٌ دائمًا، وعقيمٌ غالبًا.

فإذا تذكّرنا الصعوبة التي نلقاها مع أدمغتنا نحن، حيث جهودنا مقبولة يقيًا على أنها حسنة النية، وحيث لدينا على الأقل فكرة تقريبية عن تركيب الآلة، فإن جرأتنا في المغامرة بين الضبطات الدقيقة لأدمغة الآخرين لافتةٌ حقًا. لقد ابئلينا بقدرٍ مفرطٍ من روح التبشير. لا بد أن نبحر إلى بلاد دماغ أخينا البعيدة، ونشرح هناك أن الأمور في تلك الأرض الضالّة خاطئة خطأً جسيمًا، ونصبح مزعجين على أمل إصلاحها. لدينا دماغنا وجسدنا كاملين لنفرغ فيهما شخصيتنا، لكن هذا لا يكفي؛ لا بد أن نمدّ شخصيتنا أبعد، كأننا قوة استعمارية سكرتها فكرة «رسالتها الحضارية».

من الأسرار الجوهرية للعيش اليومي الكفاء أن نترك رفاقنا اليوميين وشأنهم أكثر بكثير مما نفعل، ونهتّم بأنفسنا. إن كان أحد رفاقك اليوميين يدير حياته على مبادئ تعرف أنها خاطئة، وبتناجٍ تشعر أنها مزعجة، فالقاعدة الآمنة أن تُبقي فمك مغلقًا. وإن اضطرت بسبب غرورك الفريد إلى فتحه، فافتحه بكل الاحتياطات، وبالتهذيب الرسمي الذي تستعمله مع غريب. الألفة ليست عذرًا للأسلوب الخشن، مع أن أغلبنا يبدو أنه يظنها كذلك.

أنت لست مسؤولًا عن الكون؛ أنت مسؤول عن نفسك. لا يمكنك أن تأمل في إدارة الكون في وقت فراغك، وإن حاولت فالأرجح أنك ستُفسد الجزء الذي تلمسه من الكون، مع إهمالك لنفسك إهمالًا خطيرًا. وفي كل أسرة يوجد عادةً شخصٌ يقوده اهتمامه المتطفل بالآلات الأخرى إلى احتكاكٍ خطير في آله هو.

انتقد أقل، حتى في خلوة غرفتك. ولا تُلْمُ أبدًا. **اقبل محيطك وتكيف معه بصمت، بدل أن تحاول بصخب أن تكيف محيطك معك.** هنا الحكمة الحقيقية. ليس من شأنك أن تتعدى حدود فرديتك. وفي هذا التعدي وقاحة. هذا واضح. ومع ذلك فإن من أهم أنشطة الحياة المنزلية التقافر عشوائيًا في حدائق الآخرين الخاصة. وما أقوله ينطبق حتى على العلاقة بين الآباء والأبناء. ومع أن وصيتي مبالغٌ فيها، فالمبالغة مقصودة لتوازن بفعالية المبالغة في الاتجاه المعاكس.

كل الشخصيات غير شخصيتك جزءٌ من محيطك. وعملية التطور جارية على ما يرام، وهم جزءٌ منها. عاملهم على أنهم حتميون. والقول إنهم حتميون لا يعني أنهم غير قابلين للتغيير. لكن تغييرهم ليس شأنك في المقام الأول؛ إنه شأنهم. شأنك أن تستعملهم كما هم، دون ادّعاء فضيلة ولا لوم ولا شكوى، لتمضي أهدافك بسلاسة.

وليس المقصود هنا أن تُسقط عنهم المسؤولية بحرمانهم من الإرادة الحرة، بينما نَحْمِلُكَ أنت المسؤولية ككائنٍ حر. فكمحيطٌ لك يجب أن يُقَبَّلوا على أنهم حتميون، لأنهم حتميون فعلاً. لكن كمراكز قائمة بذاتها، لهم مسؤوليتهم الخاصة، وهي ليست مسؤوليتك.

وهنا يدخل السؤال التاريخي: «هل لنا إرادة حرة، أم نحن دُمى في يد الجبر؟» كسؤالٍ هو ساحرٌ وعقيم. لم يُحسم قط، ولن يُحسم أبدًا. لا يمكن هدم نظرية الجبر بالجدل. لكن كل إنسان، بمن فيهم أعند أنصار النظرية، يهدمها في قلبه كل ساعة من كل يوم. ومن جهة أخرى، يمكن هدم نظرية الإرادة الحرة بالاستدلال العقلي! فبئسًا للاستدلال العقلي إذن!

إن اعتبرنا أنفسنا كائناتٍ حرة، واعتبرنا الشخصيات المحيطة بنا دُمى في يد الجبر، فسنكون قد وصلنا إلى التسوية العملية التي تُستخرج منها أفضل نتائج العيش. وتجربة القرون الفلسفية، إن كانت قد أثبتت شيئًا، فقد أثبتت هذا. والرجل الذي يعمل به في الاتفاقات والاصطدامات العادية المبتذلة لتلك التجربة الصعبة التي نسمّيها الحياة اليومية، سيقنّع سريعًا بقيمته العملية.

استراحة قصيرة

احتملت عشرة فصول، لكن ليس دون احتجاج. أعرف الشعور الذي في أذهانكم، والذي ظهر في انتقاداتٍ كثيرة لأفكاري. ولعل هذا الشعور يُترجم باختصار هكذا: «هذا كله جميل، لكنه ليس صحيحًا، ولا قليلًا! إنها مجرد حكاية خرافية تحكيها لنا. المعجزات لا تحدث»، إلخ.

وأنا من جهتي أشعر بأنني إن لم أمسك بشعوركم هذا فورًا وأنعامل معه بحزم، فالأفضل لي أن أغلق دكاني، لأنكم ستعتادون النظر إليّ على أنني مجرد مصدرٍ للتسلية الفارغة. بل إنني أُلح من تعليقات بعض المنتقدين أنني، بالنسبة إليهم، كنت كمن لم يكتب كلمة واحدة. لذلك أتوقف عند هذه النقطة، لأؤكد مرةً أخرى ما بدأت به.

خلاصة انتقادكم: «الطبيعة البشرية لا تتغير. أنا أعرف عيوبِي. لكن لا فائدة من أن تحدّثني عنها. لا أستطيع تغييرها. لقد وُلدت هكذا.» والضعف القاتل في هذه الحجة أنها، أولًا، قائمة على باطلٍ كامل، وثانيًا، تضعك في موقفٍ لا يمكن الدفاع عنه.

الطبيعة البشرية تتغير. لا شيء أبعد عن العلم، ولا أكثر غرًا في عقلية القرون الوسطى، من تخيّل أنها لا تتغير. إنها تتغير كسائر الأشياء. لا تستطيع أن تراها تتغير؟ صحيح! لكنك أيضًا لا تستطيع أن ترى العشب ينمو، إلا إن استيقظت مبكرًا جدًا.

هل الطبيعة البشرية اليوم كما كانت أيام حضارة بابل، حين كانت الآلة الاجتماعية تُزيّت بـسيولٍ من الدم؟ هل هي اليوم كما كانت أيام حضارة

الإغريق، حين لم يكن هناك شيء اسمه الحب الرومانسي بين الجنسين؟ هل هي اليوم كما كانت في القرون التي كان على الاحتكاك الدائم فيها أن يوقّر علاجه بنفسه في صورة حربٍ دائمة؟ هل هي اليوم كما كانت في الثاني من مارس 1819، حين عارضت الحكومة البريطانية رسميًا اقتراحًا بالنظر في قسوة القوانين الجنائية (التي كانت تعاقب بالإعدام على قطع شجرة، وغير ذلك من الحيل «الحكيمة» ضد الاحتكاك)، وهُزمت بأغلبية تسعة عشر صوتًا فقط؟ هل هي اليوم كما كانت سنة 1883، حين تأسست في إنجلترا أول جمعية لمنع القسوة على الأطفال؟

إن كنت ترى أن الطبيعة البشرية ما زالت كما هي، فعليك أن تخرج فورًا وتُضرم النار في مؤلفات سبنسر وداروين ووالاس، ثم تعود لتستمع بالجانب الفكاهي البحث من هذا الكتاب. وإن اعترفت بأنها تغيرت، فدعني أسألك: كيف تغيرت، إن لم يكن بالجهود الضئيلة المتواصلة التي يبذلها أفرادٌ مثلي ومثلك على أنفسهم؟ هل ظننت أنها تغيرت بالسحر، أو بقوانين البرلمان، أو بفعل الجماعات في الأفراد لا بفعل الأفراد في الجماعات؟

دعني أقل لك إن الطبيعة البشرية تغيرت منذ أمس. دعني أقل لك إن للعقل اليوم صوتًا أقوى في توجيه الغريزة مما كان له أمس. دعني أقل لك إن احتكاك الآلات اليوم أقل صريرًا وطحنًا مما كان أمس.

«لقد وُلدت هكذا، ولا تستطيع أن تغير نفسك، فلا فائدة من الكلام.» إن كنت تؤمن بهذا حقًا، فلماذا تبذل أي جهدٍ على الإطلاق؟ لماذا لا تترك الأمر كله ينزلق بجمال وتستسلم لغرائزك؟ أي غاية في محاولة ضبط نفسك بأي طريقة كانت، إن كنت غير قابلٍ للتغيير؟

أعْلِن أنك غير قابلٍ للتغيير، تكن قد أعلنت أنك جبري. وأعْلِن أنك جبري، تكن قد أعفيت نفسك من كل مسؤولية أخلاقية، وأعفيت الآخرين أيضًا. حسنًا إذن، تصرّف وفق قناعاتك، إن كانت قناعات حقًا. إن كنت لا تستطيع أن تغيّر نفسك، فأنا لا أستطيع أن أغيّر نفسي. فلو جئت وضربتك على رأسك وسرقت محفظتك، فلا يحق لك أن تلومني. كل ما تستطيعه، حين تستعيد وعيك، أن تشدّ على يدي بمودة وتهمس: «لا تعتذر يا عزيزي؛ نحن لا نستطيع أن نغيّر أنفسنا.»

تقول: هذا سخيف. نعم، إنه كذلك. وهذه نقطة من نقاطي التي لا تُحصى. الحقيقة أنك لا تؤمن حقًا بأنك لا تستطيع أن تغيّر نفسك. ما بك هو بالضبط ما بي: **الكسل المحض**. أنت تكره النهوض صباحًا، ولكي تبتّر كسلك الذي لا مبرر له، تتكلم كلاًّما كبيرًا عن القدر. وكما قيل إن «الوطنية آخر ملاذ للوغد»، فإن **الجبرية آخر ملاذ للمتهرب**. لكنك لا تخذع أحدًا، وأقلّ من تخذعه نفسك. ليس لك عقلانيًا قدمٌ تقف عليها.

وعند هذه النقطة، ولأنني أضحكك، توافق على أن تقول: «أنا أحاول فعلاً، بكل ما أستطيع، لكنني لا أستطيع أن أغيّر نفسي إلا قليلاً جدًا. أنا بطبعي كسولٌ ذهنيًا. لا حيلة لي في ذلك، أليس كذلك؟» حسنًا، ما دمت لست الشيء الوحيد الذي لا يتغير إطلاقًا في كونٍ من التغيّر، فلا بأس عندي. يكفي أن تعترف بأنك تستطيع أن تغيّر نفسك ولو قليلاً جدًا. لقد صار الفرق بين فلسفتينا مجرد مسألة درجة.

عند تطبيق أي نظامٍ لإتقان الآلة، لن ينجح شخصان بالقدر نفسه. ومن النبرة المحبطة لبعض انتقاداتكم قد يُظن أنني أعلنت عن نظامٍ يصنع ملائكةً من دمي الخيّاطين. لم يكن هذا أمني. أنا لا أؤمن بالمعجزات. لكنني أعرف أن الشيء حين يُتقن إتقانًا تامًا، كثيرًا ما يبدو كأنه معجزة.

غايتي الوحيدة أن أؤكد أن على كل إنسان أن يُتقن آله بأقصى ما يستطيع هو، لا بأقصى ما يستطيعه شخص آخر. لا أطمع في أن يكون الإنسان أفضل من أفضل نسخة منه. لكنني مقتنع بأن كل إنسان يفشل في أن يكون أفضل نسخة منه أكثر بكثير مما يلزم، لأن قوة إرادته، كبيرة كانت أو صغيرة، لا تُوجّه وفق مبادئ الحسن السليم.

الحسن السليم سيقود الإنسان بالتأكيد إلى أن يسأل: «لماذا ناقضت أفعالي بالأمس عقلي؟» والجواب سيكون دائماً تقريباً: «لأنني نسيت في اللحظة الحاسمة.» فالتفسير الأعلى لفشل كثيرٍ من محاولات تغيير الذات، والتفسير الأعلى لفرارنا البائس المتكرر إلى عقيدة الجبر، هو النسيان البسيط. ليست القوة هي ما ينقصنا، بل المهارة في أن نتذكر بالضبط، في اللحظة نفسها، ما يريدنا عقلنا أن نفعله أو نفكر فيه.

فكيف نكتسب هذه المهارة؟ لا يمكن اكتسابها إلا كما تُكتسب المهارة في الألعاب: **بالممارسة**؛ بتدريب العضو المعني حتى يتصرف بالغيرة تصرفاً صحيحاً بدل أن يتصرف بالغيرة تصرفاً خاطئاً. وهناك درجاتٌ من النجاح في هذا الأسلوب، لكن ليس هناك شيء اسمه الفشل الكامل.

العادات التي تزيد الاحتكاك يمكن استبدالها بعاداتٍ تقلل الاحتكاك. والعادات التي توقف النمو يمكن استبدالها بعاداتٍ تشجّع النمو. وكما تتكوّن العادة طبيعياً، يمكن أن تتكوّن اصطناعياً، بمحاكاة العملية غير الواعية، أي بتعويد الدماغ على الفكرة الجديدة.

ولأضرب مثلاً، دعني أعود إلى الموضوع الثانوي للاحتكاك اليومي، وفي داخله إلى أثر النبرة. الرجل يستعمل النبرة المسيّبة للاحتكاك بحكم العادة؛ إنها غريزةٌ عنده. لكن لو كان لديه ربع ساعة يفكر فيها قبل أن يتكلم، ولو

كان يستطيع خلالها دائمًا أن يستمع إلى الحجج ضد هذه النبذة، لقلّ استعماله لها بسرعة، ولغلب عقله غريزته. أما والحال كما هي، فإن غريزته تغلب عقله بهجوم مباغت، تأخذه على حين غرّة.

والتركيز المنتظم للدماغ يوميًا، لفترة معيّنة، على النبذة الخالية من الاحتكاك وعلى فوائدها الهائلة، سيُنشئ تدريجيًا في الدماغ عادةً جديدة في التفكير في هذه النبذة، حتى يتحول الدماغ المنضبط أخيرًا إلى الفعل الصحيح قبل أن تتمكن الغريزة القديمة السخيفة من الإمساك به، ثم تحلّ في النهاية غريزة جديدة حكيمة محلّ القديمة.

هذا هو المنطق. وهو ينطبق على كل العادات. ويستطيع أي شخص أن يختبر فعاليتها في أي عادة. لا يهمني إن كان قويّ الإرادة أو ضعيفها، فهو يستطيع أن يختبره. وسيرى قريبًا الفرق الهائل بين مجرد «اتخاذ قرار حسن» (وهو يفعل ذلك طوال حياته دون نتائج باهرة جدًّا)، وبين **تركيز الدماغ لوقتٍ محدد على قرارٍ حسن وحده دون سواه. التركيز، والسيطرة الكفؤة على الدماغ: كل شيء هناك!**

اهتمامٌ جديد في الحياة

بعد فترةٍ من التأديب الذهني، ومن تكوين العادات وكسرها عن قصد كما أشرت، سيبدأ الإنسان على الأقل باكتساب معرفةٍ سطحية، أو تعارفٍ عابر، بذلك الشيء العجيب الغامض: دماغه. وسيبدأ أيضًا يدرك كم هو مهمُّ في الحياة اليومية أن يتحكم في دماغه. وسيدهش بالتأكيد من المعجزات الكامنة بين ياقته وقبعته، في ذلك الصندوق الغريب الذي يسمّيه رأسه. فالآثار التي يمكن تحقيقها بمجرد التفكير الثابت المثابر لا بد أن تبدو معجزاتٍ للمبتدئين في ممارسة التفكير.

تخيّل رجلًا قضى يومًا تعيشًا لأن دماغه الأخرق المهمل نسي أن يضبط غرائزه في لحظةٍ حاسمة، فقال لدماغه: «سأجبرك، بتركيزك على هذه النقطة بالذات، على أن تتصرف بكفاءة في المرة القادمة التي تتكرر فيها ظروف مشابهة.» ثم نقّذ نيّته. ثم تكررت الظروف المحرجة، فأدّى دماغه المنضبط عمله، ومنع التعاسة. عندئذ سينظر هذا الرجل إلى دماغه بعينٍ جديدة.

سيقول: «يا للعجب! لقد أوقفت مصدرًا واحدًا من مصادر التعاسة على الأقل. كان هناك زمنٌ كنت سأجعل فيه من نفسي أحرق في أزمةٍ منزلية صغيرة كأزمة اليوم. لكنني تجاوزتها بسلام. أنا بخير. وهي بخير. والجو ليس خطرًا بكهرباء لم تُفَرَّغ! وكل ذلك لأن دماغي، وهو في حالته السليمة، راقب غرائزي بحزم! يجب أن أستمّر في هذا.»

سيحدّق في ذلك الدماغ أكثر فأكثر، وسيرى من إمكاناته أكثر فأكثر. وسيكون لديه **اهتمام جديد وأسمى في الحياة**. الحديقة شيء ممتع إلى حد معقول. لكن العناية بحديقة مملة كطعام بارد مقارنةً بالعناية بدماغ؛ والطقس الممطر لن يمنعك من الحفر والزرع والتقليم داخل ذلك الصندوق.

ومع الوقت سيستقر الرجل الذي هوايته دماغه تدريجيًا على روتين يومي، يبدأ به يومه.

الفكرة الكامنة في خلفية ذهن الرجل العادي (وأعني بالرجل العادي من ليس دماغه هوايته) هي دائمًا تقريبًا هذه: «هناك عدة أمور معلّقة فوقِي الآن: هموم، وطموحات لم تتحقق، ورغبات لم تُشبع. وبمجرد أن تُحسم هذه الأمور نهائيًا، سأبدأ أعيش وأستمتع.» هذه هي الفكرة المعتادة عند الرجل العادي. تلازمه من شبابه إلى شيخوخته. إنه **ينتظر دائمًا أن يحدث شيء قبل أن يبدأ العيش حقًا**. وأنا واثق من أنك، إن كنت رجلًا عاديًا (وأنا أعرف بالطبع أنك لست كذلك)، ستعترف بأن هذا صحيح في حقك؛ فأنت تعيش على أمل أن تتمهّد الأمور يومًا بما يكفي لتبدأ العيش.

وهنا بالضبط تختلف عن الرجل الذي هوايته دماغه. فروتينه اليومي تأملٌ على هذا النحو:

«هذا اليوم أُمامي. ظروف هذا اليوم هي محيطي؛ هي المادة التي يجب أن أعيش منها، بواسطة دماغي، وأن أسعد، وأن أمتع عن إسعاد الآخرين بالتعاسة. ومن عمل دماغي أن يستعمل هذه المادة. دماغي في صندوقه لهذا الغرض وحده. **ليس غدًا! ليس في العام القادم!** ليس حين أصنع

ثروتني! ليس حين يتجاوز طفلي المريض الخطر! ليس حين تعود زوجتي إلى رشدها! ليس حين يُرفع رائي! ليس حين أنجح في ذلك الامتحان! ليس حين تتحسن معدتي! بل الآن! اليوم، تمامًا كما هو اليوم! حقائق اليوم، التي كنت في غفلتي أراها أساسًا همومًا ومنغصاتٍ وعوائق، صرت أراها مادةً خامًا يجب أن ينسج منها دماغي نسيجًا جميلًا من الحياة.»

ثم يتوقّع اليوم بأفضل ما يستطيع. تعلّمه خبرته أين سيواجه الصعوبة، فيُعطي دماغه الدروس التي سيحتاجها أكثر من غيرها. يفحص الآلة بعناية، ويربّيها خصيصًا لنوع الطريق الذي يعرف أنها ستقطعه. وقبل كل شيء يعيد ضبط زاوية نظره، لأن زاوية نظره تنحرف باستمرار. إنه يرى باستمرار همومًا حيث ينبغي أن يرى مادةً خامًا.

قد يلاحظ مثلًا بقعةً في مؤخرة رأسه، فيتساءل: هل هي من الكبر أم من المرض، أم كانت موجودة دائمًا؟ وتقول له زوجته إن عليه أن يمرّ بالصيدلية ويطمئن فورًا. يا له من إزعاجٍ رهيب! الكبر! متاعب أمراض الشعر التي لا تنتهي! المرور بالصيدلية سيؤخره عن المكتب! إلخ، إلخ. لكن عندئذ يتدخّل دماغه الماهر الكفاء: «يا لها من مادةٍ ممتعة بشكلٍ خاص تقدّمها هذا الطرف النافه الصغير لممارسة الفلسفة والعيش القويم!» ثم: «أهذا ما سيعرّك يا نفسي؟ هل سيقدم أي غاية على الإطلاق أن أطنّ بعصبية حول هذا الطرف بدل أن أهتم بعملتي المعتاد؟»

أضرب هذا مثلًا على ضرورة ضبط زاوية النظر، وعلى الطريقة التي سيهبط بها دماغٌ عُود بالتركيز المناسب على التفكير الصحيح إلى النجدة في الطوارئ غير المتوقعة. وبطبيعة الحال سيعمل بيقينٍ أكبر في معالجة الصعوبات المتوقعة، التي «يُرى قدومها». ولحسن الحظ فإن **الاستعداد للمتوقّع استعدادٌ لغير المتوقّع**. فالرجل الذي يبدأ يومه بتأملٍ ثابت

للمخاطر التي يُحتمل أن تقدمها الساعات الست عشرة القادمة، ويتسلح خصبًا ضدها، يكون بذلك قد تسلح، وإن بدرجة أقل، ضد مخاطر لم تخطر له على بال.

لكن يجب أن يكون الروتين مرتبًا إلى حد معقول. فقد يلزم أن تبدأ عدة أيام متتالية، أسبوعًا أو حتى شهرًا، بتأديب الدماغ في تفصيل واحد معيّن، مع إهمال الأمور الأخرى مؤقتًا. ومن المدهش كيف تستطيع أن تنزع الأعشاب من كل شبرٍ في ممر الحديقة، وتحافظ عليه في أدق نظام، ثم تجد ذات صباح في وسطه تمامًا نبتة قوية مكتملة النمو، جذورها مغروسة في الصخر! كل البستانيين يعرفون مثل هذه الاكتشافات.

لكن اكتشافًا مشابهًا، وإن كلف صاحبه عملًا شاقًا، لن يُحبط الرجل الذي هوايته دماغه. فالإكتشاف نفسه جزءٌ من المادة التي عليه أن يعيش منها. وإن أراد الإنسان أن يحوّل كل شيء على الإطلاق إلى هدوئه وكرامته وسعادته، فعليه أن يستعمل حتى إخفاقاته هكذا. يجب أن ينظر إليها على أنها ظواهر للدماغ في ذلك الصندوق، وأن يشرع ببشاشة في اتخاذ الإجراءات لمنع تكرارها. وكل ما يحدث له، نجاحًا كان أو عثرة، لن يزيده إلا اهتمامًا بما في ذلك الصندوق.

أكاد أسمعك تقول: «سيكون أنانيًا رائعًا!» حسّنًا، سيكون الأناني من النوع الصحيح. فالرجل العادي ليس أنانيًا بما يكفي، ولا بنصف ما يكفي. إن كانت الأنانية تعني اهتمامًا هائلًا بالنفس، فالأنانية ضرورية تمامًا للعيش الكفء. لا مهرب من ذلك. أما إن كانت الأنانية تعني حبّ الذات على حساب الغير، فإن الدارس الجادّ لصناعة العيش اليومي لن يكون أنانيًا أكثر من سنةٍ تقريبًا. ففي سنة سيكون قد أثبت حماقة الأنانية.

النجاح والفشل

أدرك بأسفٍ أن هذه الفصول القصيرة قد تعطي، خصوصًا للقارئ الواصل، المتحمس، انطباعًا خاطئًا: انطباعًا بالبساطة. وأخشى أنه حين تصحّح التجربة هذا الانطباع بخشونة، قد يترك هذا القارئ المشروع كله في نوبة اشمئزاز، إن لم يُحدّر بأشد ما يكون التحذير، ثم يتخذ إلى الأبد موقفًا ساخرًا غير مهذب من كل نظريات التحكم في الآلة البشرية.

المشروع ليس بسيطًا. إنه قائم على مبدأ بسيط واحد، وهو التأديب الواعي للدماغ بعبادات تفكيرٍ مختارة، لكنه معقد بقدر ما يمكن لشيء أن يكون معقدًا. الغولف المتقدم لعبٌ أطفالٍ بجانبه.

الرجل الذي يقول لنفسه باختصار: «سأستيقظ في الثامنة، ومن الثامنة والنصف إلى التاسعة سأفحص دماغي وأضبطه، وهكذا تتحسن حياتي فورًا حتى لا تُعرف»، هذا الرجل مكتوبٌ له أن يلقى مفاجآتٍ غير سارة. سيكون التقدم بطيئًا. وقد يبدو التقدم سريعًا جدًّا في البداية، ثم تأتي فترة لا يجدي فيها شيء، وقد يعاني من يريد قهر دماغه سلسلةً من أفدح الهزائم. وفي تشاؤمه قد يتخيّل أن كل تعبته ذهب سدى، وأن المتسكّعين غير الجادّين في حدايق المعارض وقراء الروايات في الصالونات كانوا على حق في النهاية. بل قد يشعر بشيءٍ من الخجل من نفسه لأنه، كما يظن، حُدع بوعودٍ بَرّاقة، مثل من يشتري دواءً من دجّال.

القناعة بأن جهدًا كبيرًا بُذل دون أي تقدم هي أخطر ما يواجه المبتدئ في العناية بالآلة. وأؤكد بيقين أنها في كل الحالات قناعة لا

تسندها الحقائق، وأنها في الغالب مجرد ردّ فعلٍ بعد التعب، تشجّعه غريزة الكسل. ولا أظنها تصمد أمام فحصٍ نزيه. لكنني أعرف أن الإنسان، لكي يجد عذرًا لترك أي جهدٍ إضافي، قادرٌ على أن يقنع نفسه بأن جهده الماضي لم يُثمر شيئًا على الإطلاق. هكذا هي غرابة الآلة البشرية. وأرجو كل دارسٍ لنفسه أن يتأمل هذه الملاحظة بكل ما لديه من أمانةٍ فكرية. إنه تحذيرٌ جادٌ.

حين يلاحظ المعتمي بالآلة أنه يغيّر زاوية نظره كثيرًا؛ وحين يلاحظ أن ما كان يراه لبّ المشكلة بالأمس قد هبط اليوم إلى تفاهة، وحلّت محله ظاهرةٌ جديدة؛ وحين يستيقظ ذات صباح فيرى، بلمحةٍ جديدة غير متوقعة في أعماق الآلة، أنه كان مخطئًا تمامًا حتى الآن وعليه أن يبدأ من جديد؛ وحين يتساءل كيف أمكن أن يكون أعمى وغبيًا إلى حد ألا يرى ما يراه الآن؛ وحين تحجب الرؤية الجديدة خباثتٍ جديدة وتضيّقها تحفّظاتٌ متواصلة؛ وحين يغمره تعقيد مشروعه، **عندئذ فليتشجع، لأنه ينجح.**

فتاريخ النجاح في أي فن، والعناية بالآلة فن، هو تاريخٌ من البدايات المتجددة، ومن تبدّد الشكوك وتكوّنها من جديد، ومن تصوّرٍ يتسع باستمرار لمساحة الأرض التي لم تُفتح بعد، وتصورٍ يضيق باستمرار لمساحة الأرض التي فُتحت.

واللافت أنه، مع أن أي مشروع لا يمكن أن يقدم إثارةً أكثر تنوعًا وتقلّبًا من السيطرة على الدماغ، فإن **الخطر العظيم الثاني** الذي يهدد نجاحه النهائي ليس سوى جفاف الحماسة له! كان المرء سيظن أنه في أمرٍ يمسه عن قربٍ إلى هذا الحد، وقد تكون نتائجه حيوية له بالمعنى الحرفي، ويمكن أن تدور عليه سعادته وشقاؤه بالتأكيد، لن يملّ الإنسان من مجرد

السَّام. ومع ذلك هذا ما يحدث. لقد لاحظت مرارًا ترك هذا المشروع العظيم المثير، مؤقتًا أو نهائيًا، بسبب مجرد قلة الاهتمام.

وأتصوّر أن الاهتمام به سيذبل في كل الحالات تقريبًا، إلا تلك التي تجعل فيها قوة إرادة أصيلة استثنائية المشروع غير ضروري تقريبًا، ما لم يُغدَّ بانتظام من الخارج. وهذا الاهتمام لا يمكن تغذيته من الخارج بالحديث مع غيرك من مرؤضي الأدمة. فهناك أشياء لا يجوز أن يناقشها الناس الأسوياء، وهذا منها. فالأمر حميمٌ أكثر من اللازم، وأخلاقيُّ أكثر من اللازم أيضًا. وحتى بعد دقائق قليلة فقط من الكلام عن هذا الموضوع، تبدو عدوى قاتلة تتسلل إلى الجو: عدوى التعالي الأخلاقي والتحذلق. (أم أنني مخطئ وأتوهم هذا الرعب؟ لا، لا أستطيع أن أصدق أنني مخطئ.)

لذلك يجب أن تأتي التغذية من **القراءة؛ قليلٌ من القراءة كل يوم.** أظن أن هناك آلاف المؤلفين الذين كتبوا بصدقٍ متفاوت عن إدارة الآلة البشرية. لكن اثنين منهم يبرزان عندي بسهولة فوق الجميع: **ماركوس أوريليوس** و**إبكتيتوس**. ولم يُكتشف الكثير منذ زمنهما. كتب ماركوس أوريليوس في الكتاب التاسع من «التأملات» قبل أكثر من سبعة عشر قرنًا: «إن كمال الحياة قوةٌ تسكن في الروح.»

يُعدّ ماركوس أوريليوس بالتأكيد أعظم كتاب مدرسة الآلة البشرية، ويرى كثيرون أن عدم قراءته يوميًا عادةٌ سيئة. وكاعترافٍ ذاتي، يقف عمله وحده بلا نظير. لكن كدليلٍ عملي للوجود، أقدم أحاديث إبكتيتوس على ماركوس أوريليوس. إبكتيتوس أحسن؛ سيفضلك بالغبى بمجرد أن ينظر إليك. إنه ظريف، بل فكاهي، ولا يبتعد أبدًا عن أحداث الحياة اليومية. وهو مفعّم بما يمسّ واقع القارئ المعاصر. لقد كان عبدًا معنّقا. أما ماركوس أوريليوس فكان إمبراطورًا، وفيه الكآبة التي لا بد أن يعاني منها كل الأباطرة. إنه روحٌ

أرقى من إيكيتوس، لكنه في رأيي ليس رفيقًا بنفس الفائدة. فليس كلنا يتنفس بحرية في أجوائه.

ومع ذلك يجب بالطبع أن يُقرأ، ويُعاد قراءته باستمرار. حين تنتهي من إيكيتوس، ويكفي صفحته واحدة أو فقرة واحدة في اليوم تمضغها جيدًا وتهضمها، تستطيع أن تنتقل إلى ماركوس أوريليوس، ثم تعود إلى إيكيتوس، وهكذا صباحًا بعد صباح، أو ليلةً بعد ليلة، حتى نهاية حياتك. وسيحفظان لك اهتمامك بنفسك.

أما في موضوع التركيز، فأنا أتردد في أن أوصي بكتاب «قوة الفكر» للسيدة آني بيزانت، ومع ذلك قد أكون ظالمًا إن لم أوص به، نظرًا لأثره الهائل فيّ. إنه ليس من أفضل كتب هذه المرأة المدهشة. وهو موجّه لأتباع مذهبٍ روجي معيّن، ولا يُفهم كاملاً إلا في ضوء عقائدهم. وفيه قدرٌ ملحوظ مما يبدو لي عاطفيّةً ضعيفةً، وكثيرٌ من العقائد المسلّم بها بلا دليل. لكنه أقلّ كتيّبات الدماغ التي صادفتها إخفاقًا. وإن تجاهل القارئ كل ما هو غامض أو ثرثرة بالنسبة إليه، فسيبقى له قدرٌ كبير جدًا من المعلومات والنصائح السليمة جدًا.

الإنسان ومحيطه

أنتقل الآن إلى جانبٍ مختلف تمامًا من الموضوع كله. فحتى الآن تعاملت مع الآلة البشرية على أنها أداة لتكييف الإنسان مع محيطه. وكان هدفي أن أبين كم يعتمد على الآلة وكم قليلًا يعتمد على المحيط، وأن العمل الجوهري للآلة هو أن تستعمل، لصنع مادة الحياة، المحيط الذي تجد نفسها فيه بالذات، ولا محيط سواه!

لكن هذا كله لا يعني أن على المرء أن يقبل، بجبريةٍ ودوامٍ وسلبيةٍ، أي محيطٍ سخيفٍ صادمٍ أن رماه القدر فيه. فلو ذهبنا بتأديبٍ أدمغتنا بعيدًا بما يكفي، لوصلنا بلا شكٍ إلى نتائجٍ جيدةٍ بشكلٍ مدهشٍ في أي محيطٍ كان. لكن لن يكون من «العقل السليم» أن نبدل قدرًا مفرطًا من قوة الإرادة في تأديب الدماغ، حين يمكن لجهدٍ أخفٍ في اتجاهٍ آخر أن يأتي بنتائجٍ أسعد.

رجلٌ رماه القدر في قناةٍ مائيةٍ قد يصنع المعجزات في تحويل نفسه إلى كائنٍ برمائيٍّ؛ وقد يُذهل العالم بمشهد فلسفته في ظل صعوباتٍ مدهشةٍ؛ وقد يدفع الناس قروشًا ليأتوا ويتفرجوا عليه؛ لكنه سيكون أقل حمافةً لو تسلَّق خارج القناة ورُتب أمره ليعيش نهائيًا على ضفتها.

وميزة الدراسة الكافية للتحكم في الآلة، كما أوجزتها، أنها تمكّن الدارس من أن يحكم بشيءٍ من اليقين: هل عدم رضاه عن حياته سببه آلةٌ مختلفة، أم محيطٌ لا تناسبه الآلة في تركيبها الأساسي؟ إنها تساعد فعلًا على أن يقرر بإنصاف، في حال وجود خلافٍ خطيرٍ بينهما، هل هو المخطئ أم بقية

الكون. وإن قرر أنه ليس المخطئ، فإنها تساعد أيضًا على أن يختار محيطًا جديدًا، أو يعدّل القديم، على أساس علمي.

الأغلبية الساحقة من الناس لا يعرفون أبدًا، بأي قدرٍ من الدقة، لماذا هم غير راضين عن إقامتهم على هذا الكوكب. يقومون برحلاتٍ طويلة مُتعبة بحثًا عن كنوزٍ ثمينة، وهي مخبوءة طوال الوقت في صدورهم. لا يعرفون ماذا يريدون؛ يعرفون فقط أنهم يريدون شيئًا. أو إن تمكنوا من أن يحددوا في أذهانهم ما يريدونه حقًا، فالأرجح بنسبة مئة إلى واحد أن الحصول عليه ستركهم بعيدين عن الرضا كما كانوا في البداية!

وهذا مما نلاحظه كل يوم: الناس منهمكون بجنون في محاولة الحصول على أشياء، تقول التجربة العامة إنها مخيبة للآمال بشكلٍ مريع لمن حصلوا عليها. ومع ذلك يستمر الصراع، وسيستمر على الأرجح. وكل ذلك لأن الأدمغة عاطلة!

قال إبيكتيتوس عن مسألة تحكّم العقل في الغريزة: «ليس الأمر المطروح تافهًا. إنه يعني: هل أنت في كامل عقلك أم لا؟» وبهذا المعنى، فالأغلبية الساحقة من الناس بلا شك ليسوا في كامل عقولهم؛ وإلا لما تصرفوا كما يتصرفون، بهذا الغموض وهذه اللامبالاة وهذا العمى. أما الرجل الذي يعمل دماغه بشكلٍ سليم، فهو بكل تأكيد في كامل عقله.

وحين يضع الإنسان عقله، بفضل كفاءة دماغه، في موقع القيادة الواضحة على غرائزه، فإنه يرى الأشياء فورًا من منظورٍ أصدق مما كان ممكنًا من قبل، ولذلك يستطيع أن يقدّر قيمةً عادلة للأجزاء المختلفة التي يتكوّن منها محيطه.

المحيط الأول: المكان. إن كان مثلاً يعيش في لندن، ويشعر باحتكاكٍ دائم، فسيقوده ذلك إلى فحص ادعاءات لندن بأنها قبلة الأذكاء. قد يقول لنفسه: «هناك خطأ ما، وموضع المشكلة ليس في الآلة. لندن تُجبرني على احتمال الفذارة والظلمة والقبح والتوتر والتنقلات اليومية المملة والغلاء العام. فماذا تعطيني لندن في المقابل؟» وقد يقرر، بما أن لندن لا تقدم له شيئاً خاصاً في المقابل إلا بريقها، ومقعداً بين حين وآخر في حفلٍ موسيقي جيد أو مسرحية رديئة، أنه قد يحصل على عائِدٍ أفضل لما ينفقه من عقلٍ وأعصابٍ ومال في الريف أو المدن الصغيرة. وقد يدرك، مع روائيّ فرنسي، أن «أغلب أصحاب العقول المتميزة حقاً يفضّلون الأقاليم».

وقد يغادر عندئذ فعلاً، طاعةً للعقل، أوهام لندن بقلبٍ مطمئن، واثقاً من تشخيصه. أما الرجل الذي لم يخصص وقتاً كافياً للعناية بآلته الذهنية، فلن يستطيع أن يستجمع نفسه لهذه الخطوة، جزئياً لقلة العزم، وجزئياً لأنه لم يفحص قط مصادر تعاسته. فالرجل الذي لا يتحكم تماماً في آله، ويبقى غير راضٍ عن وجوده على الدوام، كرجلٍ يُسمَّم سرّاً ولا يستطيع أن يحدد بماذا ولا بيد من. فلا يبقى له طريقٌ وسط بين الجوع التام واستمرار التسمم.

المحيط الثاني: الأشخاص. وكما في محيط المكان، كذلك في محيط الأشخاص. معظم الاحتكاك بين الأفراد احتكاكٌ يمكن تجنّبه؛ لكن أحياناً ينبع الاحتكاك من أسبابٍ عميقة إلى حد أن لا مهارة في الآلة تستطيع إزالته. لكن كيف يستطيع الرجل الذي لا يقود دماغه حياته أن يحكم: هل يمكن علاج هذا الكدر أم لا؟ هل ينبع منه أم من الآخر؟ إنه ببساطة لا يستطيع أن يحكم.

أما الرجل الذي يحتفظ بدماعه للاستعمال لا للتسلية الفارغة، فإنه حين يرى أن الاحتكاك مستمر رغم دماغه، سيفتنع بوضوح بأن الانفصال هو العلاج الوحيد، إلى حد أنه سيشدّ عزمه للجهد اللازم للانفصال. فمن أهم مزايا الدماغ الكفء أنه قادر على أن يتصرف بحزم وعزم، جزئيًا بالطبع لأنه تقوَّى، لكن أكثر لأن عملياته لا تُربكها تدخّلات الغرائز المجرّدة.

المحيط الثالث: الهدف العام في الحياة. وهذا في اقتناعي أكثر بكثير من محيط المكان أو محيط الأشخاص خطأً وعبثًا لا علاج له. وسأجرؤ على القول إن سبعين بالمئة على الأقل من الطموح لا يتحقق أبدًا، وإن تسعةً وتسعين بالمئة من الطموح الذي يتحقق لا ثمرة له. بعبارة أخرى، هناك تضحية هائلة بالحاضر من أجل المستقبل تجري على الدوام.

وهنا أيضًا تتجلى فائدة تأديب الدماغ بشكلٍ لافت. فالرجل الذي أول عمله كل يوم أن يركّز ذهنه على أداء ذلك اليوم بالذات أداءً سليمًا، لا بد أن يحفظ اهتمامه بالحاضر. ومستحيل أن ينحرف منطوره إلى حد أن يكرّس، لنقل، خمسًا وخمسين سنة من حياته لتحضيراتٍ مشكوكٍ فيها لراحته ومجده في السنوات العشر الأخيرة.

والرجل الذي دماغه خادمه، لا خادمته المدلّة ولا كلبه الأليف، سيتلقى كل يوم من الرضا والقناعة ما يجعله يسأل نفسه مبكرًا: **«هذا الطموح الذي يأكل ساعاتي، ماذا سيعطيني مما ليس عندي أصلًا؟»** ثم إن النمو الثابت للاهتمام بهواية (لنسمّها كذلك!) العيش اليومي بالحسّ السليم سيعمل كاختبارٍ تلقائي لأي طموح. فإن بقي طموحٌ وازدهر فوق هذه العناية اليومية بالآلة، فليثق صاحبه بأنه طموحٌ أصيل لا يُقهر، وليسغ إليه بإيمانٍ كامل؛ فاهتمامه المتنامي بالحاضر سيمنعه من أن يجعل طموحه مذبذبًا يُقدّم عليه الحاضر كله قربانًا.

سيقال لي إنني أريد أن ألغي الطموح، وإن الطموح هو المحرّك الأعظم للوجود، وإنني لذلك عدوّ للمجتمع ولا حقّ فيّ. لكنني لا أريد أن ألغي الطموح. ما أقوله إن الطموحات السائدة تنتهي عادةً بخيبة الأمل، وإنها تعني عادةً تشويه حياةٍ كاملة. هذه حقيقة لا تقبل الجدل، وسببها أن الطموحات تُختار إما دون معرفة قيمتها الحقيقية، أو دون معرفة ما ستكلّفه.

الدماغ المنضبط سيُظهر فورًا عدم الحاجة إلى أغلب الطموحات، وسيضمن أن ما يبقى منها يُدار بالعقل. وسيقنع صاحبه أيضًا بأن **طموح أن تعيش الساعات الأربع والعشرين القادمة وفق أسمى درجات الحسّ السليم، طموح يصعب جدًا أن يُتفوّق عليه.**

المال

من يريد حقًا أن يقول الحقيقة البسيطة عن المال في عصرنا هذا يواجه صعوبةً عملية خطيرة جدًّا. فعليه أن يضع نفسه في مواجهة الكتلة الساحقة من الرأي العام، وأن يرضى بأن يُعدَّ متصنِّعًا أو غريب الأطوار أو أحمق.

الناس يبحثون اليوم عن السعادة كما كانوا يبحثون عنها قبل مليون سنة. **والمال ليس العامل الرئيسي في السعادة.** يمكن أن يُجادَل في ما إذا كانت أهمية المال، كعاملٍ في السعادة، من الدرجة العشرين أم من الدرجة الخمسين. لكن لا يمكن أن يُجادَل في ما إذا كان المال، في الواقع، يجلب السعادة بذاته أم لا. لا شك على الإطلاق في أن المال لا يجلب السعادة.

ومع ذلك، وفي مواجهة هذه الحقيقة العامة التي لا تُدحض، يتصرف الناس جميعًا تمامًا كأن المال هو الشرط الوحيد أو الرئيسي للسعادة. الناس لا يفكرون بعقولهم، ولن يستمعوا إلى العقل؛ لقد استُثير دهمهم في مطاردة المال، ومحاولة الفيلسوف أن يمسك الناس من أزرار معاطفهم ليشرح لهم لا تختلف عن محاولته معاتبة زلزال.

إن ضحّى رجلٌ بمصلحته في وصية متسلِّطٍ ميت ليتزوج من يريد، أو إن رفض رجل دين خمسة وعشرين ألف دولار في السنة ليغترب وبعظ أصحاب الملايين في نيويورك، عُدَّت الظاهرة مذهلةً حقًا إلى حد أنها تطير فورًا حول العالم في صورة مقالاتٍ صحفية مليئة بعلامات التعجب!

وفي عصرٍ يكون فيه هذا الموقف من المال صادقًا، يصبح من الخطر حقًا، بل أشك في أنه قد يكون ضارًا، أن تصرّ بعنادٍ صاحب على أن المال، بدل أن يكون أعظم شيء في العالم، هو أقل شيء فيه. ففي أوقات الهياج العسكري الشديد قد يُنبذ الرجل، إن لم يُعندَ عليه، لأنه قال آراءً سيقبلها الجميع بعد سنتين على أنها بديهيات؛ ولهذا يمسك الفيلسوف الحكيم لسانه كي لا يُقطع. وكذلك، في ذروة حقبة صار فيها امتلاك المال بكمياتٍ سخيفة وسيلةً مضمونة لنيل احترام الجميع، لا أنوي أن أعط ولا أن أطبق كل ما أراه في سرّي بشأن الثراء.

ولم يكن الأمر كذلك دائمًا. فمع أنه وُجدت عصورٌ سابقة متعطشة للثروة والتفاخر مثل عصرنا، فقد وُجدت أيضًا عصورٌ لم يكن فيها جمع المال وحسد أصحاب الملايين الشاغل الوحيد للرجل العادي. وسيأتي بعد عصرنا بلا شك عصرٌ كهذا.

وقلّما يدهشني شيء في الحياة الاجتماعية أقل من ظهور حركةٍ مضادة للترف، أو تأسيس رابطة بين أبناء الطبقة الوسطى (حيث وحدها يوجد العقل بكثرة)، يتعهد أعضاؤها بالابتعاد عن كل أنشطة الترف الكبيرة السخيفة المبتذلة القبيحة المملة في عصرهم، وبألا ينفقوا أكثر من مبلغٍ معيّن في السنة على الأكل والشرب وتغطية أجسادهم وتنقلهم كالطرود من بقعةٍ على سطح الأرض إلى أخرى. حركةٌ كهذه ستساعد، بل ستساعد حتمًا، على تكوين رأيٍ عام يعدّ الإنفاق المسرف على الملذات الشخصية سلوكًا معيبًا. ومع ذلك، لا داعي لأن يقلق فورًا مساهمو الفنادق الفخمة والمطاعم وميادين السباق بكل أنواعها، ومعهم المغنّون المشهورون والمحامون وغيرهم. فالحركة لم تأت بعد.

أما عن أثر المال في الإدارة الكفؤة للآلة البشرية، فلحسن الحظ لا حاجة لأن نُعلم من بدأوا يهتمون بإدارة أدمغتهم بأن المال لا يكاد يُحسب في هذا الأمر الأعلى. **لا شيء مما يساعد حقًا على الكمال يكلف أكثر مما هو في متناول كل شخص يقرأ هذه الصفحات.** فتكاليف التأمل اليومي، وبناء العادات الذهنية، وممارسة ضبط النفس والبشاشة، وتنصيب العقل ملكًا على رعاغ الغرائز البدائية، هذه التكاليف تافهة حقًا، كما تعلم. وسواء نلت تلك الزيادة المستحقة في راتبك أم لم تنلها، تستطيع على أي حال أن تمضي قدمًا مع الآلة؛ إنها ليست سيارة، وإن بدأت بتشبيهها بسيارة.

وحتى حين تصل، بعد أن تكون قد أتقنت إلى حد ما فنَّ تحقيق القناعة والكرامة اليومية بالإدارة الحكيمة للآلة، إلى تطوير الحياة وزخرفتها، فإن أفضل تطويرٍ للحياة لا يُفلس صاحبه أبدًا. قد يرتفع سعر اللحم، وقد ارتفع فعلاً، لكن الكتب لن ترتفع. وستبقى رسوم دخول المعارض الفنية والحفلات الموسيقية وأمثالها منخفضة جدًّا. أما منظر التلال عند الغروب، ورائحة الأرض، وطعم الفاكهة والقُبُل، فهذه أشياء لا تتأثر بمكائد الشركات الاحتكارية ولا بهستيريا البورصات. والسفر، وهو بعد الكتب أجمل الزخارف كلها (ولا يُقاس بالكيلومترات بل بالنوعية)، صار بالتأكيد أرخص مما كان في أي وقت. كل ما يلزم هو البراعة في الإنفاق. **وكثيرٌ من البراعة مع قليلٍ من المال أنفع وأمتع بكثيرٍ من كثيرٍ من المال بلا براعة.**

وطوال الوقت وأنت تقرأ هذا تقول بسخرية نافذة الصبر: «هذا كله جميل، والكلام سهل، لكن...» باختصار: أنت غير مقتنع. لا تستطيع أن تقتلع من روحك تلك العقيدة المتجذرة بأن المال الأكثر يعني فرحًا أكثر. وأنا آسف لذلك. لكن دعني أطرح سؤالًا واحدًا، وأرجو أن تجيب عنه بصدق: إمكاناتك

المالية الآن أكبر مما كانت. فهل أنت أسعد، أو أقل سخطًا، مما كنت؟ إذا أخذت وجودك يومًا بيوم، وساعةً بساعة، وحكمت عليه بذلك الإحساس الغامض في صدرك بالمسؤوليات والهموم والأفراح الحقيقية والرضا، فهل أنت أسعد حقًا مما كنت؟

لا أريد أن يُساء فهمي. **المسألة المالية لا يمكن تجاهلها.** فإن كان صحيحًا أن المال لا يجلب السعادة، فليس أقل صحةً أن نقص المال يخلق وضعًا يصح فيه العيش الكفء أصعب مرتين. وهاتان القضيتان، اللتان قد تبدوان متناقضتين في الظاهر، ليستا كذلك حقًا. فالدخل المتواضع يكفي لتحقيق الذات أتمّ تحقيق من حيث القناعة والكرامة؛ **لكن يجب أن تعيش في حدوده.**

لا يحق لك أن تتجاهل المال. فالرجل مثلًا الذي يثقّف نفسه ويعلم بناته كل شيء إلا القدرة على كسب عيشهن، ثم يجرؤ على أن يموت فجأة دون أن يترك قرشًا، هذا الرجل وغد.

تسعون بالمئة، أم أقول تسعة وتسعون؟، من كل تلك الهموم التي تجعل العيش السليم شبه مستحيل سببها **عادة السير على حافة الدخل كما يسير المرء على حافة هاوية.** فأغلب الناس يحملون همًا ماليًا أو آخر باستمرار، وإلى الأبد، في خلفية أذهانهم. والتضحية اللازمة لإلغاء هذه الحال ظاهرة أكثر منها حقيقية. فكل إنفاقٍ مسألة عادة.

وبوجه عام، يستطيع الرجل أن يدبّر من دخلٍ متواضع جدًّا كل ما يحتاجه، إلا إن كان يحتاج إلى تقدير المتفخرين. وقد تجعل العادة، وغالبًا ما تجعل، إعالة أسرةٍ بألفين في السنة صعبةً تمامًا كإعالتها بمئتين. وأظن أن انقطاع الدخل شهرًا واحدًا يعني لأغلب الناس إما الإفلاس، وإما المُرابي، وإما ضيقًا

حادثًا. ومستحيلٌ في مثل هذه الظروف أن يملك المرء روحه الخالدة ملكًا
تامًا مستقلًا!

لذلك أميل إلى القول إن أول تمهيدٍ للتحكم السليم في الآلة هو
عادة إنفاق أقل بوضوح مما تكسب أو تتلقى. حتى أبسط موظف
يجب أن يملك ما يكفيه سنة كاملة درعًا ضد تقلّبات صاحب عمله. فمن
المعقول أن تتوقع من سكان مدينة بلا أسوار وسط سهلٍ يحتله جيشٌ معادٍ
أن ينكبّوا بنجاح على دراسة اللوغاريتمات أو الفلسفة، بقدر ما تتوقع من
رجلٍ ليس في خزنته دخل سنة أن ينكبّ بنجاح على فن العيش الحقيقي.

**والسرّ كله في التحرر النسبي من الهمّ المالي لا يكمن في
الدخل، بل في الإنفاق.** أخجل من أن أقول هذه البديهة القديمة.
لكنها، كمعظم الحكيم التي لا تُدحض، مُهمّلة تمامًا. تقول بالطبع إنه ليس
سهلًا أن تترك هامسًا بين إنفاقك ودخلك الحالي. أعرف ذلك، وأشدّ على
يدك أخويًا. ومع ذلك، فإن تقليل الإنفاق في أغلب الحالات أسهل بكثير من
زيادة الدخل دون زيادة الإنفاق. الخيار أمامك. وأيًا كان قرارك، فثق بأن
أساس الفلسفة هامش، وأن الهامش يمكن الحصول عليه دائمًا.

العقل، العقل!

في الختام، لا بد أن أؤكد على عدة نتائج لما يمكن أن أسميه «الزراعة المكثفة» للعقل. فالدماغ لن يزداد قوةً وفاعلية في مجالات الحياة التي يُفترض أن يعمل فيها بشكلٍ خاص فحسب، بل سيوسّع أيضًا دائرة نشاطاته. وستدخل بالتأكيد في كل شيء. ودارس نفسه لا بد أن يدرك وجوده أكثر فأكثر وفق آراء دماغه. وسيكون هذا مفيدًا وطيبًا جدًّا له ولبقية العالم معًا.

تعترض. تقول إنه سيكون أمرًا مؤسفًا حين يُرجع البشر كل شيء إلى العقل. تتحدث عن القلب. وتتصور وجودًا عاقلًا تمامًا على أنه وجودٌ قاسٍ متحجر. ليس كذلك. **حين يتصارع العقل والقلب، يكون القلب على خطأ دائمًا.** لا أقول إن العقل دائمًا على صوابٍ تام، لكنني أقول إنه دائمًا أقل خطأً من القلب. إمبراطورية العقل ليست شاملة، لكن العقل داخل إمبراطوريته هو الأعلى، وإن تحدّته قوى أخرى على أرضه فعليها أن تتحمّل العواقب. وفي كل الحالات تقريبًا، حين يعارض القلب الدماغ، لا يكون القلب إلا اسمًا جميلًا نطلقه على كسلنا وأنانيتنا.

نمرّ في شارعٍ مزدحم فنرى أرملةً شابة محترمة تقف على حافة الرصيف، رضيعٌ على ذراعها، وفي يدها غلبتان من أعواد الثقاب. نعرف أنها أرملة من ثياب حدادها، ونعرف أنها محترمة من ملابسها، ونعرف أنها لا تنسوّل لأنها تبيع أعواد الثقاب. ومنظرها هناك يؤلم قلبنا. فيبكي قلبنا، ويعطي المرأة

قرشًا مقابل علبة ثقاب ثمنها نصف قرش، فتهدأ بذلك آلام قلبنا. لقد قام قلبنا بعملٍ صالح.

لكن عقلنا (الذي كان لسوء الحظ نائمًا في تلك اللحظة) يستيقظ لاحقًا ويقول: «ذلك الرضيع كان مستأجرًا؛ وثياب الحداد وأعواد الثقاب مجرد حيلة. الأمر كله مشهودٌ مُعدٌّ لاستخراج المال من أحرق مثلك. إنه آليٌّ مثل آلة البيع التي تضع فيها قرشًا فتخرج سلعة. وبدل أن تخفف بؤسًا، ساعدت ببساطة على إدامة نظامٍ شائن. كان يجب أن تعرف أنك لا تستطيع أن تفعل الخير بهذه الطريقة الارتجالية.»

القلب يعطي القروش في الشارع، والدماغ يدير جمعيات العمل الخيري المنظم. وبالطبع، إعطاء القروش في الشارع أقلّ عناءً بكثير من إدارة جمعيةٍ خيرية. وكوسيلةٍ لإحداث أثرٍ سريع رخيصٍ مُرضٍ في أنانيتنا، لا تقارن الجمعية الخيرية أبدًا بهذه الحيلة: إعطاء القروش عشوائيًا دون تحقّق. لكن أيّ الوسيلتين يجب أن تُتهم بالقسوة والتجّزّ؟ وأيهما هي اللطيفة حقًا؟

أقدّم الأرملة الشابة المحترمة مثالًا على صراع القلب والدماغ. وكلّ الحالات الأخرى مثلها. **الدماغ دائمًا ألطف من القلب؛** والدماغ دائمًا أكثر استعدادًا من القلب لأن يتكبّد عناءً كبيرًا مقابل جزاءٍ قليل جدًّا؛ والدماغ دائمًا يفعل الشيء الصعب غير الأناني، والقلب دائمًا يفعل الشيء السهل الاستعراضي. وطبيعي أن تكون نتيجة نشاط الدماغ في المجتمع دائمًا أنفع من نتيجة نشاط القلب.

نقطةٌ أخرى. حاولت أن أبين أنه إن وُضع العقل في موقع القيادة على المشاعر، فمن المستحيل أن تتخذ موقف اللوم تجاه أي شخص على

الإطلاق بسبب أي فعل على الإطلاق. يجب أن تختفي عادة اللوم تمامًا. وليس حجةً ضد هذا القول أنه يؤدي إلى الفوضى وهدم المجتمع. فحتى لو أدى إلى ذلك (وهو بكل تأكيد لا يؤدي)، فلن يؤثر هذا في صحته. كل الحقائق العظيمة هوجمت بحجة أن قبولها يعني نهاية كل شيء. كأن ذلك يهملهم!

ولأنني لا أدعي أنني مكتشف هذه الحقيقة، فلا أتردد في إعلان أنها من أهم الحقائق التي لم يتعلمها العالم بعد. لكن السبب الحقيقي لاعتراض كثيرين على هذه الحقيقة ليس أنهم يظنون أنها تؤدي إلى هدم المجتمع كليًا (فالخوف من هدم المجتمع لم يمنع أحدًا قط من فعل شيء أو الإيمان به، ولن يمنعه)، بل لأنهم يقولون لأنفسهم إنهم إن لم يستطيعوا أن يلوموا فلن يستطيعوا أن يمدحوا. وهم يحبون المديح كثيرًا!

إن كانوا مولعين بالمديح إلى هذا الحد اليائس، فمن المؤسف أنهم لا يمدحون أكثر قليلًا! لا شك أن الرجل العادي يلوم أكثر بكثير مما يمدح. غريزته أن يلوم. إن كان راضيًا لم يقل شيئًا؛ وإن لم يكن راضيًا أثار ضجة بلا منطقٍ على الإطلاق. لذلك، حتى لو كان إلغاء اللوم يعني إلغاء المديح، لكان التغيير بالتأكيد تغييرًا نحو الأفضل. لكنني لا أرى أي سببٍ لأن يعني إلغاء اللوم إلغاء المديح. بل على العكس، أظن أن عادة المديح يجب أن تُنمى. (لا أقترح المديح بالمغرفة بين حين وآخر، بل بملعقة الملح بانتظام.) وعلى أي حال، فإن انتصار الدماغ على الغرائز الطبيعية (وفي الإنسان المنظم تنظيمًا مثاليًا لن يقع بين الدماغ والغرائز حتى خلافاً صغير) يعني دائمًا الانتصار النهائي للطف.

وأيضًا، فإن تنمية الدماغ، والتمرين التأديبي المستمر لملكة التفكير، يعني تناقص الآثام. (لا تظن أنني ألمح إلى أنك على وشك قتل زوجتك أو اقتحام

بيت جارك. فمع أنك شخصيًا بريء، فإن كثيرًا من الإثم ما زال يُرتكب في جوارك القريب.) قال بلزاك في روايته «ابنة العم بيت»: «الجريمة في أصلها عيبٌ في قوى التفكير.» وفي إدراك هذه الحقيقة كان ماركوس أوريليوس، كعادته، قد سبق بلزاك بقليل؛ فقد قال: «لا روح تُخطئ الحقيقة عمدًا.» وكان إبيكتيتوس قد وصل إلى النتيجة نفسها قبل ماركوس أوريليوس، وأفلاطون قبل إبيكتيتوس.

كل خطأ يُرتكب بإيمانٍ صادق بأنه أفضل ما يمكن فعله. أيًا كان الإثم الذي يرتكبه الإنسان، فهو يرتكبه إما لمنفعته أو لمنفعة المجتمع. وفي لحظة ارتكابه يكون مقتنعًا بأنه الشيء الوحيد الذي يجب فعله. وهو مخطئ. ومخطئ لأن دماغه لم يكن على مستوى مهمة التفكير في الأمر حتى نهايته. فالهوى (القلب) مسؤول عن كل الجرائم. بل إن الجريمة ليست إلا كلمة مناسبة نطلقها على ما يحدث حين يتصارع الدماغ والقلب فيُهزم الدماغ. وصفقة أعواد الثقاب تلك كانت جريمة، كما تعلم.

وأخيرًا، فإن تنمية الدماغ لا بد أن تنتهي إلى عادة فحص كل ظواهر الحياة والسلوك فحصًا مستقلًا أصيلًا، لترى حقيقتها وإلى أين تقود. القلب يكره التقدم، لأن هذا العجز العزيز يريد دائمًا أن يفعل ما كان يُفعل دائمًا. القلب مقتنع بأن العُرف فضيلة. وقلب العامل الذي اعتاد قلة النظافة يتمرد حين تُصرّ الدولة على أن يكون نظيفًا، لا لسببٍ إلا أن عاداته أن يكون غير نظيف. ولا فائدة من أن تقول لقلبه إنه سيعيش أطول إن كان نظيفًا! لقد كان كذلك، وسيبقى كذلك.

الدماغ وحده عدو التحيز والسوابق، وهما وحدهما عدو التقدم. عادة فحص الظواهر فحصًا أصيلًا هذه هي ربما أعظم عاملٍ في صنع

الكرامة الشخصية؛ لأنها تنمّي الاعتماد على النفس والشجاعة لقبول عواقب التفكير. **العقل أساس الكرامة الشخصية.**

أنتهي. لم أقل شيئاً عن التحولات التي سيحدثها الاستعمال الدائم للدماغ في القيمة العامة للوجود. تحولاتٌ بطيئة ودقيقة، لكنها هائلة! سيكتشفها المثابرون. سيحدث للمثابرين أن تتغير حياتهم كلها، نسيجها ولونها أيضاً! **ولن يحدث شيء لمن لا يثابرون.**

الكتاب الأصلي The Human Machine لأرنولد بينيت (1908) في الملكية العامة.

الترجمة العربية من PaperFlip، ويمكن قراءتها ومشاركتها مجانًا مع ذكر المصدر.

المزيد من الكتب وأدوات PDF المجانية: [/paperfliptools.com/ar](https://paperfliptools.com/ar)